بسم الله الرحمن الرحيم

بـــاب
من ذكر أعلام النبوة ودلائل الرسالة

وهو أنه كان ﷺ يتوعد قريشا وهو بمكة بنصر الله له وظهوره عليهم، فيقولون: أيظن محمد أنه يغلبنا على مكة بأتباعه الفقراء والعبيد ونحن الأقوياء الأغنياء والناس كلهم معنا والرغبة عندنا لا عنده والبأس والنجدة لنا لا له، فتلا عليهم سورة القمر وما أنزل الله بأمة أمة من الأمم التي يعرفونها إلى أن قال: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَائِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ * أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ * سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾(١).

فهزمت جموعهم، وكانت العقبى له كما أخبر وفصل، وقد كان في ظاهر الرأي والحزم وموجب التدبير أن تكون العقبى لهم لا له، وهم الغالبون لا هو، لأنهم واليهود والنصارى وتلك القبائل يد واحدة عليه وفي العداوة له، والكثرة والثروة والبأس والنجدة والكراع والسلاح معهم لا معه، فلن يغلبهم إلا أن يكون من قبل الله ورسولاً لله كما أخبر.

وبـــاب آخـــر

وهو أنه ﷺ قال حين دعا إلى الله وفي حال وحدته وضعفه: إن الله أرسلني ووعدني أن يظهر ديني على الأديان كلها، فيكون سلطاني أقهر من سلطان كسرى وقيصر، فأغلب الملوك، ويعلو ملكي وملك أنصاري وأتباعي كل ملك في الأرض. ثم ما رضي بهذا القول حتى جعله كتابًا يقرأ وقرآنا مخلدًا يتلى، يعرفه العدو والوليّ فقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾(٢) وقال أيضًا: ﴿يُرِيدُونَ أَن

---

(١) سورة القمر آية ٤٣ - ٤٥.

(٢) سورة الفتح آية ٢٨.

يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾(١) فكان كما قال وكما أخبر، فلم يرض أن أظهر دينه بالحجة حتى جعل أهله العالين بالقدرة والظاهرين بالمنعة والقاهرين الملوك والجبابرة بالعز والملكة. ثم ما رضي حتى أورده على وجه يغيظ ويغضب ويبعث على الممانعة والدفع والمغالبة، وعلى وجه يجعل العدوّ على أهبة، بخلاف تدبير حزمة الملوك ودهاة الجبابرة. فأخبر بهذا وديانات العرب قائمة وملوكهم على جزيرة العرب كلها مستولية، وهي جزيرة عظيمة فيها عدة ملوك، كل واحد منهم عظيم الشأن، ثم ديانات اليهود وملوكهم، وديانات النصارى والروم وملوكهم بالشام ومصر والمغرب والجزيرة وأرمينية، إلى غير ذلك، وديانات الفرس وممالكها، وهي كانت أعظم ممالك الأرض وأوسعها ملكًا وأشدها بأسًا، وممالك الهند. فغلب ملوك العرب في جزيرتها، وغلب ملوك اليهود وممالك الفرس كلها، وممالك النصرانية والروم، فلم يبق ملك بحيث تناله الحوافر والأخفاق والأقدام إلا أزاله عنه وأخرجه منه، واسنده إلى عقاب يعتصم بها، ومعاقل يأوى إليها، وقلاع ومطامير وخلجان وبحار يمتنعون بها. ثم ركب البحار إليهم، فأخرج الروم من الشام ومصر وأرض المغرب ولعلها مسيرة سنين، وهي اليوم في أيدي عدة ملوك، وغلب على أرمينية، وصار ملوكها يؤدون الجزية، وسار الإسلام حتى نزل على القسطنطينية وهي محصنة ممنعة بالبحار والخلجان والجبال والأسوار، فمذ غزاهم خلفاؤه وأصحابه كانوا في ذلة وفي شعاب ورؤوس مضايق قد سخت نفوسهم عن عيون ممالكهم واستسلموا، وكانوا كأعراب يطلبون النجعة أو كلصوص يطلبون الغرّة ويطرقون النيام، أو كصعاليك ينتظرون الفتنة بين المسلمين فينتهزون الفرصة، فأما أن يكون ملك يظهر لهم ويقيم بإزائهم ويعاديهم الحرب ويناوئهم كما كان ذلك بين ملوك الفرس والروم وملوك الترك والهند فلا.

فما ضربت ملوك الروم وتدًا في بلادهما فضلاً عن بلاد المسلمين منذ

---

(١) سورة التوبة آية ٣٢.

غزاهم أصحاب رسول الله ﷺ إلى سني نيف وخمسين وثلثمائة للهجرة في زمن الديلم، والسلطان بالشام إذ ذاك سيف الدولة على ابن حمدان، وهو معروف الديانة والطوية للإسلام والغزاة وأهل السيرة والعنف بالرعية، ومما كان يلجئهم بالجور إلى الهرب إلى الروم، وشرح ذلك يطول. وكانت الروم تقول: قد كفانا بأس المسلمين وشغلهم عنا وألجأهم إلينا، وهو ملكنا الأكبر ودمستقنا الأعظم[1].

فأما ممالك السند والهند وأصحاب الفيلة والبأس والعز وفي البر والبحر، فأخذ من ممالكهم في البر وركب إليهم في البحر مما يطول شرحه، فحازه وصار من بلدان الإسلام كمولتان والمنصورة وغيرها من المدن والأمصار البحرية ما هو معروف، وشرحه يطول، ومن طلبه وجده. فقد اعتبر العلماء وأهل التحصيل فما وجدوا أحدًا جاء مجئ نبينا محمد ﷺ في الوحدة والفقر والفاقة ومناقرة الأمم كلها ومعاداتها، حتى ما اعتصم بمخلوق ولا صوب ملكًا ولا جبارًا كان في زمانه كما تقدم شرح ذلك، ثم صار أمره في القهر والغلبة ما صار أمره إليه. فإن ظاهر الأمر موجب التدبير والعقل أن ذلك لا يتم ولا يكون، وأنه هو المغلوب المقهور المقتول إلا أن يكون من قبل الله الذى لا يغلبه شئ. فإن أمره ﷺ كان كريشة دفعت الجبال فسيرتها وطيرتها، أو كزجاجة وضعت على الجبال فطحشتها وسوتها بالأرض. فتأمل هذه الآية العظيمة، وكل آياته عظام.

وما قلنا إنه نبى لأن دعوته قامت ودولته اتسعت، ولكن لما قدمنا وشرحنا من وحدته وفقره وتبرئه من الأمم وإكفارها وإسخاطهم كما قد فسرنا غير مرة، ومجئ ذلك كما قال وأخبر من أنه مع هذه الحالات سيظهره الله عز وجل، وقد علم ذلك من سمع أخباره ودعوته باضطرار، أنه أخبر بذلك جميعه في أول أمره قبل أن يكون شيء[2] منه وأن الأمر كان كما أخبر.

---

(١) الدمستق: الحاكم.

(٢) في المخطوط: شيئًا.

ومعروف من سيرته أنه ﷺ كان يعرض نفسه على القبائل وفي المواسم ليتبعوه، ويشرط عليهم في دعوته عداوة الأمم كلها ومحاربة الملوك، فيقال له: إن الكسور من ملوك الفرس لا ترضى بهذا ولا تصب عليه ولا نحن من رجال معاداتهم ومعاداة غيرهم من الملوك، فيقول: أرأيتم إن منحكم الله ملكتهم وأفرشكم نساءه أتطيعونه وتعبدونه؟ فيتعجبون من هذا القول، ويقول بعضهم لبعض:ما هذا إلا مجنون واحد وحده لا يغلب على دار بمكة وقد ناصبَه قومه وهو/يقول هذا، ويقول بعضهم ما هو إلاعاقل، فإن كان رسولاً لله كما قال فسيكون ذلك، فيقال: بمن سيكون هذا، وأين خزائن الملوك وعساكرها وغضبها لملكها وأنفقتها وكبرياؤها ونخوتها حتى يترك هذا يغلبها، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا﴾(١).

ولشهرة هذا القول منه قبل أن يتلو به القرآن، أنه ﷺ لما توفى وارتدت العرب، جال أهل مكة جولةً، وهمّوا بالردة، فاستخفى عَتّاب بن أسيد عامل رسول الله ﷺ على مكة، فقام سُهَيل بن عمرو فيهم خطيبًا ونهاهم عن ذلك، فقالوا: محمد مات فإن الله لم يمت. وقد علمتم أني أكثركم قتبًا في برّ وجارية في بحر، فأقروا أميركم، وأنا ضامن إن لم يتم هذا الأمر أن أردّها عليكم جذعة وإن كنت أعلم أن هذا الدين سيمتد من طلوع الشمس إلى غروبها. قالوا ومن أين علمت، قال: إنى رأيت رجلاً واحدًا وحيدًا لا مال له ولا عزّ، قام في ظلّ هذا البيت فقال: إنى رسول الله، وإنى سأظهر، فكنا بين ضاحك وهازل وراجم ومستجهل، فما زال أمره ينمى ويصعد حتى دنّا له طوعًا وكرهًا، والله لو كان من عند غير الله لكان كالكسرة في يدي أى فتى من فتيان قريش، وإن هذا، وأشار إلى أبى سفيان، ليعلم من هذا الأمر مثل ما أعلم، ولكن ق ختم على قلبه حسد بنى عبد المطلب.

وسهيل بن عمرو هو أحد رجال قريش وعقلائها وخطبائها وذو الرأي

---

(١) سورة القصص آية ٥٧.

منها، وهو صاحب القضية يوم الحديبية، وله تلك المناظرة والمجادلة، وكان أحد أعداء رسول الله ﷺ والمجردين في ذلك، وكان إذا تلا رسول الله ﷺ القرآن بمكة يقوم خطيبًا وكأن كلامه يخرج من صدع صخرة، فينثال الناس عليه وهو القائل وهو على باب عمر مع وجوه قريش وسادات العرب وقد حجبوا، فخرج آذن عمر فيقول: أين بلال؟ أين عمار؟ أين صهيب؟ فينهض هؤلاء الموالى مكرمين ويحجب أولئك، فرآهم سهيل وقد تمعّرت وجوههم فقال لهم: مالكم تتمعر وجوهكم، هؤلاء قوم دُعوا ودُعينا، فأسرعوا وأبطأنا، ولئن عبطتهم اليوم بباب عمر، لما أعدّ الله لهم غدا في الجنة أفضل.

ولما أبى أبو بكر الصديق قبول الصلاة والجهاد ممن منع الزكاة، قال له أصحاب رسول الله ﷺ: يا خليفة رسول الله، من نقاتل ومن ندع، لا طاقة لنا بحرب العرب كلها، أقبل من هؤلاء الصلاة ودع الزكاة فلعلهم إذا رغبوا في الصلاة أن يرغبوا في الزكاة. حتى إذا فرغوا من قولهم تكلم أبو بكر فقال: الحمد لله الذى هدى فكفى، وخلق فسوّى، وأغنى وأقنى، إن الله جل ثناؤه بعث محمدًا ﷺ والإسلام غريب شريد قد رث حبله ووليّ أهله، ومقت الله أهل الكتاب فلا يعطيهم خيرًا ولا يصرف عنهم سوءًا حين غيروا أو حرفوا، والعرب الأميّون صفر من الله، أضلهم دينًا وأشدهم عيشًا، فجمعهم الله بمحمد ﷺ، فنصرهم من أنفسهم، ووعدهم بالنصر على عدوهم. فلما توفي الله محمدًا ﷺ، ركب الشيطان مركبه الذي كان أنزله عنه فأخذ بحبل رقهم ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾[1] وقد ارتّد من حولكم ومنعوا شاتهم وبعيرهم، ولم يكونوا في دينهم أزهد منهم يومهم هذا، ولم تكونوا في دينكم أرغب من يومكم هذا، والله لا نبرح نقاتل على أمر الله جل وعزّ حتى ينجز الله لنا وعده ويفى لنا بعهده، فيقتل من قتل منا شهيدًا من أهل الجنة، ويبقى من بقي منا خليفة ربّه

(١) سورة آل عمران آية ١٤٤.

في أهله، مطيعين متوكلين، قضاء لا خلف له ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[1] وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾[2]. والله ليخبرن الله لنا ما وعدنا في كتابه، وليظهرنّ ديننا على جميع الأديان، وليمكننّ لنا في الأرض كما وعدنا في كتابه، وهو اليقين الذي لا خلف له.

وقد كانت ردة العرب بعد وفاته ﷺ بألوان الردة: منهم من أدّعى النبوة، ومنهم من كانت ردته بتعطيل الشريعة كلها، ومنهم من كانت ردته بمنع الزكاة على أن يقيم الصلاة ويجاهد مع المسلمين، فإن لم يقبل منهم ذلك صاروا مع العدو على المسلمين، وأغاروا على المدينة، وزحفوا حتى شارفوا المدينة، وخافهم المسلمون، فسألوا أبا بكر أن يقبل ذلك منهم مدة إلى أن ينكشف ما بالمسلمين، فأبى، فقيل له ما نراك تنحاش لما قد بلغ من الناس ولما يتوقع من إغارة العدو. فقال أبو بكر ما دخلني إشفاق من شرّ ولا دخلني في الدين وحشة إلى أحد منذ ليلة الغار، فإن رسول الله حين رأى إشفاقي عليه وعلى الدين قال: هونّ عليك يا أبا بكر[3]، فإن الله قد قضى لهذا الأمر بالنصر والتمام. فقبلوا منه ورجعوا إلى قوله، وقاتلوا العرب كلها فغلبوهم وقهروهم مع قلة المسلمين وكثرتهم، لتعلم معرفتهم بما أخبرهم به رسول الله ﷺ من الظهور وثقتهم بذلك.

فما فرغ أبو بكر من العرب أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ على فارس والروم أن الله قد وعدكم الفتح، وأن يظهر دينه على كل دين، وأن

---

(١) سورة النور آية ٥٥.

(٢) سورة الفتح آية ٢٨.

(٣) في المخطوط: أهون عليك.

يستخلفكم في الأرض كما استخلف الذين من قبلكم، والله متمم أمره، ومصدق رسوله، ولكن أخوف ما أخاف علينا أن يصرف الله ذلك إلى غيرنا لتقصير يكون منّا، فجدّوا وبادروا لتحوزوا ثوابها. ثم قال هم: إن بلادهم خَرَسَه يعنى خراسان، فقد سمعنا رسول الله ﷺ يذكرها ويخبر أنكم ستفتحونها. فذكرها وهي أقصى ممالك فارس وأوسعها بلادًا وأكثرها رجالاً وأشدها بأسًا. ولما صار النعمان بن مقرن مع النفر الذين معها من المسلمين إلى يزدجرد ابن شهريار ملك فارس برسالة عمر بن الخطاب يدعونه إلى الإسلام وأداء الجزية والقتال، فقال لهم يزدجرد: لا أعرف أمة أقّل ولا أشقى منكم. ثم ذكر من ذِلة العرب وسوء حالها ما يطول، ثم قال: تقولون لفارس، وملكُها أعزّ ملوك الأرض، وملوك الأرض كلها تخضع لها: تعطوننا الجزية، يآل كلاب، لولا أنكم رسل لقتلتكم، سأتقدم إلى رستم، يعني صاحب جيشه، بأن يدفنكم وأميركم، يعني سعد بن أبى وقاص، وكان نازلا بالعُذيب يريد ملك فارس، بأن يدفنكم في خندق القادسية، ثم أرسل إلى بلادكم فاستأصلكم وأصنع بكم أشد مما صنعه سابور بكم. وأخذ يتعجب من ضعف أجسامهم ورثاثة سلاحهم وكسوتهم.

فقالوا له: إنا قد فهمنا ما ذكرت أيها الملك من القلة واستطالة الملوك علينا ولكن الله بعث فينا رجلاً منا يدعونا إلى الله، ووصفوا له الإسلام وحال النبى ﷺ ووحدته وفقره، وأنه وعد أن يغلبنا ويغلب الأمم، فعجبنا من قوله، وتلقيناه بالجهل والرد والتكذيب، فم تزل مواعيده تصدق، فما أخلف في شيء قاله. وقد وعدنا ممالككم وأرضكم ودياركم، ولن يخلف قوله. فأجيبوا إلى دينه فإنه دين يحسن فيه الحسن ويقبح فيه القبيح، نخلفُ فيكم كتاب الله فتجاهدون من يليكم فتفوزون، وإلا فالجزية نقبلها منكم عن يد وأنتم صاغرون، فإنكم إن تقاتلوا ينصرنا الله عليكم. فقال: ما تريدون بقولكم عن يد؟ قالوا عن يدٍ منّا عليك في قبولها منك، فازداد غيظة وقال: قوموا يا كلاب عني، وجرى لهم معه ما يطول، وإنما أردنا ذكر ثقتهم بهذا الوعد.

ولما سار رستم بجيوشه إلى سعد بن أبى وقاص وهو في المسلمين، أرسل رستم طلائعه وقال لهم: بادروا، ومن وقع بأيديكم من العرب فأسرعوا به إليَّ. فجاءوا برجل من المسلمين، فقال رستم للترجمان: قل له ما جاء بكم إلى بلادنا؟ فقال المسلم: لنأخذ موعود الله، فقال رستم: وما هو؟ قال المسلم: أنفسكم وأموالكم وديباركم، فقال رستم الملك له: يا كلاب، كأنا قد وُضعْنا في أيديكم، فقال له العربي: أعمالكم وضعتكم في أيدينا، أنك لست تحاول البشر وإنما تحاول القدر، فقال له رستم: أما أنت فتقتل الساعة، فقال له المسلم: أنا أقتل فأصير إلى الجنة، ومن بقي من المسلمين يظهر عليكم.

ولما نزل الملك رستم القادسية، أرسل إلى سعد أن أرسل إليّ من يبلغنى عنك ويبلغك عنى، فأرسل إليه رجلا واحدًا، فجلس له على سريره، وأحدق به جنوده وهو في عشرين ومائة ألف في خيول وفيلة وشدة وبأس. فقال رستم للمسلم: قل لي ما جئتم تطلبون - وظن رستم أن المسلمين سيرهبون لما يرون من جنوده - فقال له المسلم: إنك لا تسمع مني أو تنزل إليّ أو أصعد إليك، فهاله ذلك منه وهو رجل واحد، فلما صار معه وصف له الإسلام ورغبه فيه، فقال له رستم: مثلكم معشر العرب مع فارس مثل رجل كان له كرم فدخلته الثعالب فتغفل عنها فطمعت فيه، فسدّ عليها المثاغب ثم قبلها عن آخرها، وكذا يكون أمركم معنا، وذكر من كان يولونه على العرب وغلبتهم لهم، ثم قال: هاتوا يا أشقياء جمالكم هذه نوقرها لكم تمرا وبُرًا ونكسوكم فإنكم عراة وترجعون، فهو خير لكم، فإنه لا طاقة لكم بالملوك، وخاصة ملك فارس. فقال له المسلم مثل قول أصحابه من حال رسول الله ﷺ وكيف كان ابتداؤها وما وعد به، فانصرف.

ثم عاود رستم سعدًا فيمن يرسله إليه، فأرسل إليه رجلاً واحدًا، وكان رث الهيئة واللبسة والسلاح، فسأله رستم عما جئتم له، فوصف له مثل ما وصف أصحابه، وقال مثل ما قالوا، فسأله رستم عن الإسلام، فوصف أصوله وحدوده - والترجمان يترجم عنه - فأقبل رستم على من حوله من الملوك

والقواد والوزراء والأساورة، فقال: ألا ترون إلى حسن ما يصف من هذا الدين، وإلى هؤلاء كيف لا يختلف قولهم مع كثرتهم، فقالوا له: نعيذك بالله أيها الملك أن تستحسن دين هؤلاء، أما ترى عريهم ووسخهم ورثاثة سلاحهم ولباسهم، فقال لهم رستم: أنتم قوم عُنيتم بالملابس والمآكل والمشارب وعنُوا بالأحساب، انظروا إلى عقولهم وبصائرهم وصبرهم. وجرى له معهم أكثر مما جرى لهم مع الملك الكبير يزدجرد مما يطول شرحه.

وهم يذكرون هذا الوعد مع كثرتهم، ولا يختلف قولهم، وكانت الملوك تمتحنهم بمثل هذا لينظروا هل يختلف قولهم، وهل هناك أزلة أو هفوة لصاحبهم فتظهر من بعضهم على طول المدة، أو تميل بهم الرغبة إلى عاجل الدنيا مع تعجل السلامة، وهل يهو لهم ما يرون من العتاد والعدة وما يسمعونه من التهديد بالقتل، فما وجدوا عندهم شيئًا من ذلك، وكانت قرة أعينهم بما آتاهم الله من البصيرة في دينهم، كما قد قال سليمان عليه السلام: ﴿فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُم﴾(١).

ولقد كتب أمير المؤمنين عمر إلى سعد: سرت في العرب ونزلت على الفرس، ما تنتظر؟ ناجز القوم. فكتب إليه سعد يذكر له عدد فارس وبأسها وشدتها وعتادها وعدتها، وضعف من معه وقلتهم ورثاثة سلاحهم، فكتب إليه عمر: بهذا وُعدنا، قال الله: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾(٢) فاشكر الله يا سعد أن سمعته بأذنك، ورأيته بعينك، وباشرته بيدك.

وكم كان للمسلمين مثل ذلك مع ملوك الروم بحمص ودمشق وأنطاكية ومصر وغيرها، وما كانت الرسل تقوله لهم عند المجادلة أن نبينا قد وعدنا بظهور دينه على الأديان، وأنه قد أخبرنا وأنذرنا وبشرنا بأمور كثيرة فما

---

(١) سورة النمل آية ٣٦.

(٢) سورة الفتح آية ١٦.

أخلفنا في شئ قط، وما جرى لهم معهم يطول شرحه، وهو مذكور في مواضعه، وإنما ذكرنا هذا القول لأن من قطعته هذه الآيات فتحيرّ فلم يجد متعلقا فأخذ يقول فيها عند صحتها: هذه المواعيد لم تكن في أول الأمر، وإنما يقال هذا فيمن أخلف مواعيده وظهر كذبه في شيء بعد شيء، فأما من مكث ثلاثين سنة يخبر بما في هذا القرآن، ثم ينجو مثله من الأخبار، فلم يخلف في شيء منه، كيف يقال فيه[1] مثل هذا، ولو كان قد قال هذا القول قبل موته بساعة لما خرج من أن يكون آية دلالة على نبوته وأنه شيء قد انتقضت العادة به، فإنه ﷺ ما خلف بيوت الأموال ولا مروج الكراع ولا خزائن السلاح، بل مات فقيرًا، ومرض وعنده سبعة دنانير، فقال: ما كان يقول محمد لربه لو لقيه وهذه عنده، فقسمها وتصدق بها.

وقد حمى نفسه ونساءه وأهله وولده عن الدنيا كما هو معروف، وما خلف في أصحابه وعليهم إلا البصائر فقط، وقد ارتدت العرب بعده إلا ومسجدين: مكة والمدينة، فنهض أصحابه بالأمر وليس معهم إلا التقوى والبصائر، وإنما يقول مثل هذا من لا يعرف الفرس والروم وقديمها وشدة بأسها وحزمها وضبطها ويسرها وكثرة جنودها وتقادم الملك فيها وظنها بملكها، وحال رسول الله ﷺ وسيرته وما خلقه، وكيف كانت حال العرب في المهانة الضعف والقلة عند ملوك الفرس والروم والهند وغيرهم، وشرح ذلك يطول. فما غلبت العرب إلا بالتقوى ولا عزت إلا بالإسلام. ولقد كانت الفرس تنفذ إلى جزيرة العرب فيما يكرهونه بالرجل الواحد وبالنقر اليسير، وكذا الروم فينفذ أمرهم، ولهذا مزق كسرى أبرويز كتاب النبى ﷺ ووجّه باثنين في إشخاصه إليه. فأما عند الحرب فما كانوا ينفذون إلى الجمع الكبير من العرب إلا بالنقر اليسير، ولقد عجبت العجم والعرب من انكسار السرية الذين أنفذهم كسرى بسبب النعمان بن المنذر يوم ذي قار، حتى قال النبى ﷺ **«هذا أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم، وبي نصروا».**

---

(١) في المخطوط: في

ثم عاد الأمر إلي خلاف ذلك، فكان النفر من أصحاب رسول الله ﷺ يلقون الجمع الكثير فينُصرون عليهم، حتى كان الرجل وحده يسير إلى بلد من بلدانهم فيأخذه مع رثاثة سلاحهم وقلة عتادهم وعدتهم، ولقد قال أبو أمامة الباهلي صاحب رسول الله ﷺ في زمن بنى أمية وقد رأى لهم رايات وتهويلات ما تصنعون بهذا ثكلتكم أمهاتكم؟ والله لقد أخذ هذا الملك الذى في أيديكم رجال ما كان لسيوفهم قياع، والله ما كانت مجانّهم إلا برادع جمالهم.

وكان عمر أمير المؤمنين كثيرًا ما يقوم في الصحابة خطيبًا، فيذكر لهم ما كانت فيه العرب من القلة والذلة والفقر والشقاء وشدة العيش واستطالة الأمم عليها، ثم إلى أى شيء آل أمرها إليه برسول الله ﷺ، ويقول: إنما أقول هذا لكم لأنى سمعت الله يقول لموسى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾[1]، ويأمرهم بلزوم طاعة الله، فبها غلبوا الأمم وقهروا الملوك، حتى صار ملكهم أعز من كل ملك في الأرض، ودينهم أظهر الأديان وأهيبها وأجلها، وأنهم ما لزموا ذلك لا يزالون ظاهرين قاهرين.

وكانت ملوك الفرس والروم تعجب من انهزام عساكرها الخشنة المعدة القوية الشديدة من بين أيدي المسلمين، مع قلتهم وضعفهم وقلة آلتهم وسلاحهم، حتى لقد رستم الملك لما عبر العتيق لحرب سعد بالقادسية: أين عسكر هؤلاء الكلاب، فقيل له: أشخص بصرك إلى هذه الجهة تره، فقال لما أشخص بصره: قال: أرى سوادًا فأين هو من السواد، فقيل له: هو السواد، فعجب وقال: وهذا هو كله، قالوا: نعم، قال: وقد بذلنا لهم الصلح فما أجابوا وهذا قدر عسكرهم، لا تقلوهم وادفنوا هؤلاء الكلاب أحياء، استقلالا لهم. فلما قامت الحرب نزعوا برادع جمالهم يستخفون بها وقدموا ابن ام مكتوم وهو أعمى ومعه رايتهم، فصاروا عنده كالضحكة، والطمع فيهم أشد، واحتفازه لهم أكثر. فلما رأى صبرهم تحير، حتى قال لجواسيسه: يا ويلكم، أيّ ناس هؤلاء، أما يملّون ما هم فيه، أما يطلبون الراحة، أما يشغلهم أكل. قيل: إنهم

---

(١) سورة إبراهيم آية ٥.

إذا قاموا من منامهم ابتدؤوا بأكلهم، قال: وما يأكلون، قيل له: مع كل واحد منهم خشية يأكلها، يعني بذلك السّواك، لأن الجاسوس كان يراهم يستاكون عند القيام من النوم فظن أن ذلك طعامهم، لأن الفرس والروم لا تعرف السّواك.

ولما قدمت منهزمة الروم على هرقل وهو بأنطاكية استعظم انهزامهم، وكان عنده أن المسلمين هم الذين ينهزمون، وأنه يصير إلى المدينة فيستأصلهم، فقال لهم: أخبروني ويلكم عن هؤلاء القوم الذين تقاتلونهم، أليسوا بشرًا مثلكم، قالوا: بلى، قال: فأنتم أكثر أم هم؟ قالوا: بل نحن أكثر منهم أضعافًا في كل موطن، قال: فمالكم تنهزمون كلما لقيتموهم؟ فقال شيخ منهم: من أجل أنهم يقومون بالليل ويصومون بالنهار، ويوفون بالعهد، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويتناصفون، ومن أجل أنّا نزني، ونركب الحرام، وننقض العهد، ونغضب ونظلم، ونأمر بما يسخط الله، وننهي عما يرضي الله، ونفسد في الأرض. قال: أنت صدقتني.

وكانت نصارى العرب بين تغلب وتنوخ وبلخ وغسان وغيرها من القبائل تعين الروم والفرس على المسلمين، وكانوا ينغمسون في المسلمين لأنهم عرب، فيظنهم المسلمون منهم، فيرجعون بأخبارهم إلى الروم، فيحدثونهم عن عسكرهم، وعن أمرائهم ورؤسائهم كشرحبيل بن حسنة، ومعاذ بن جبل، وخالد بن الوليد وأبي عبيدة بن الجراح وهو أمير الأمراء، وأنهم لا يبينون من جندهم بشيء، وأن كل واحد منهم هو الذي يقوم على فرسه ويخدم أهل عسكره، وأن الذين في عسكرهم من بنى هاشم وهم أهل بيت نبيّهم ورهط أبي بكر وولد عمر في العسكر كضعفاء الناس، لا يبينون من غيرهم بشيء. وأن من سرق قطعوه، ومن قتل قتلوه، ومن افترى جلدوه، ومن كذب أسقطوه وأبعدوه وإن كان ابن نبيّهم أو ابن أميرهم. وأنهم في الحدود والحقوق سواء، لا يتفاضلون إلا بالتقوى في دينهم، وأنهم رهبان بالليل وفرسان بالنهار. ويحدثونهم بحب النصارى لهم، وتشبثهم بهم، وأنهم أحب إليهم من ملوك النصرانية، وأن أهل

حمص بكوا لرحيل أبي عبيدة بن الجراح عندهم لما تكاثرت عليه ملوك الروم، فقيل لأهل حمص: تبكون على هؤلاء وهم أعداؤكم في الدين، والذين يجيئونكم ملوككم وأهل دينكم، فيقولون: هؤلاء أهل الأمانة والوفاء وقول الحق والعمل به، وقد أمناهم: - فهل سمعتم بمن يأمنه عدوه - دماؤنا محقونة، وأموالنا موفورة، وسبلنا آمنة، وأعراضنا مصونة، وأهل ديننا يفتضون أبكارنا، ويشربون خمورنا، ويأكلون ودوابهم أقواتنا وعلف مواشينا، ويسخروننا لمعونتهم. فكان سرورهم بملك المسلمين لهم عظيمًا، وهكذا كانت رجال الفرس.

فإن عمر حين ملكهم أقرّهم على أديانهم وأموالهم، وأخذ الجزية منهم، وفرض على أرضهم القفيز والدرهم، وصدقهم في ادّعائهم، واستعمل عليهم وفي أرضهم وخراجهم حذيفة بن اليمان، وسلمان الفارس، وعمار بن ياسر، وعثمان بن حيف، وأمثالهم، ووصاهم بهم، وحَرص الفرس به أن يستعملهم عليهم وضمنوا التوفير، وقالوا نحن أعلم بهم، فلم يفعل، فسقط عن الفرس رسوم ملوكهم عليهم من حق النوروز والمهرجان والكسور والأجور وحق الحزن وغير ذلك، فأيسروا وسمنوا وصاروا كشحم الكلى، فأحبّوا الإسلام والمسلمين فما رأوا سوءًا، إلى أن كتب زاذان فرّوخ - رجل منهم - للحجاج فسار بهم سيرة ملوكهم فقالوا: مازلنا مع المسلمين بخير حتي دخل بيننا وبينهم رجل منا، فكنا كما يقال: إن فأسًا طرح بين شجر فقال بعضهم لبعض: ما لهذه بيننا؟ فقالت شجرة منهن: ما علينا منها بأس ما لم يدخل فيها شيء منّا.

وكانت ملوك الفرس والروم يعجبون من سلطان المسلمين وأنه يقوم بدرّة ومرقعة يغلب الجبابرة وأهل الملك القديم، وأصحاب التدبير والسياسة والترتيب، وأصحاب الكنوز، وأتاهم عن عمر أن كنوزهم تحمل الية فيقسمها ولا يحزنها. وأن قائلاً قال له: يا أمير المؤمنين لو ادّخرت من هذا المال ذخرًا ليكون إن كان، فقال له: كلمة ألقاها الشيطان على لسانك، أما إنها لن تضرني ولكنها فتنة لمن بعدي، يُدخر لكون إن كان تقوى الله وطاعته وطاعة رسوله،

وقسم المال ولم يقبل منه. وكان يأخذ عماله بإنصاف الناس ورعايتهم وخدمتهم وأن يعودوا العبيد والضعفاء إلى غير ذلك مما يطول.

ولما انكشف ملوك الروم من الشام ومصر، واحتُجزوا من المسلمين بالمضايق والدروب، أخذوا في مدارته ومراسلاته، وطمعوا في كفه واستعطافه بالرفق، فكانت رسلهم ترد المدينة مع نفر من المسلمين في ثغورهم، فلا يرون له قصرًا ولا منزلاً يتميز به من سائر الناس، بل يريدون منازلهم كقامة رجل من جريدة النخل، وربما لا يجدوه في بيته ولا في مسجده، فيسأل المسلمون الدين معهم: أين أمير المؤمنين؟ فيقولون: ها هنا كان آنفا وما ندري أين مضي، فيمشون مع رسل الروم يطلبونه في المدينة فيجدونه وحده في طرف من الأطراف مشغولاً بشأن المسلمين، فيقول الروم للمسلمين: هذا الذى أخرج الروم والفرس من ممالكها، لا قصر له ويمشي وحده حافيًا، أما يخاف هؤلاء الملوك؟ فيقول المسلمون لهم: هو أعز على المسلمين من ذلك، فيرجعون إلي ملوكهم بخبره، فيسألون بينهم وفي حكمائهم، هل رأوا وبلغهم أن سلطانًا بهذه[1] العزة والغلبة قام بدرّة ومرقعّة، فيقولون: لا، ما سمعنا ولا ضننّا ولولا أنا رأينا ما صدقنا.

وقد كان يزد جرد بن شهريار ملك فارس قال لرستم صاحب جيشه وقد سأله رستم عن النعمان بن مقرن والذين كانوا معه وكيف رآهم، فقال له يزدجرد: ما ظننت أن في العرب أمثالهم، ما تقصر عقولهم عن عقول فارس، وجدتهم على بصيرة ويقين من أمرهم، ولقد وُعدوا أمرًا لا ينتهون عنه أو يبلغوه أو يهلكوا. ولما ظفر سعد برستم، وهزم جيوش الفرس، صار إلى المدائن، وهرب يزدجرد إلى نهاوند، كان يجاري خواصه، ويكثر تعجبهم من ضعف العرب وغلبهم الجبابرة الأقوياء أهل الملك القديم والتدبير السديد من الروم والفرس، وشدة جرأتهم عليهم وإقدامهم عليهم في وقت واحد، لا يكون لهم عندهم من الهيبة ما يصمدون لملك ملك حتى إذا افرغوا منه تفرغوا

(١) في المخطوط: بهذا.

لغيره، بل تفوقوا عليهم كأنهم ملك واحد أو سلطان واحد فأصابوهم، مع سوء التدبير واطراح الحزم خلافًا لمايفعله حزمة الملوك، فيقول يزدجرد: ما أظن صاحبهم إلا رسولا لله كما ادعى، فلو لم يكن من آياته إلا طاعة العرب له وقد كانوا منتشرين يأكل بعضهم بعضًا.

وانما رماهم بزدجرد بن شهريار بسوء التدبير وسوء الاختيار، أنهم قصدو الملوك كلهم، وأثاروا أهل الأرض كلهم على أنفسهم ضربة واحدة. وما هكذا كانت تسير الملوك، بل كانوا يقصدن لبعض الوجوه ويدارون غيرها، ويتقون كل جنبة جنبة منه، هذا قول يزدجرد بن شهريار.

وسار يزدجرد بن شهريار من نهاوند إلى فارس، ورتب عماله وأصحابه في الممالك كلها، وأنه يستثير بالفرس كلها بخراسان ويستنصر بالترك ويرجع، فيخرج العرب من ممالكه، ويصير إلى بلادهم فيقتل عمر مَلِكهم ويستأصلهم. وخرج من فارس إلى سبجستان، ومنها إلى مرو، ومنها إلى خاقان ملك الترك، واستنصره وصاهره، وعيونه وجواسيسه تختلف إلى العرب، ورسله إلى الملوك في ممالكه، يشدّ منهم ويأمرهم بجهاد العرب، ويعدهم بنصرهم والرجوع إليهم، وهم يعذلون الفرس والمجوس الذين ادّوا الجزية وصبروا على العرب، وكانت العرب وملك المسلمين أحب إليهم من ملوك الفرس لما قدمنا، ولأن ملوك الفرس كانوا يسمون أنفسهم الأرباب وغيرهم العبيد، وكذا كانت كتبهم من الأرباب إلى العبيد.

ثم كانت أصول دياناتهم على ما ألقاه زرادشت إلى الملك بستاسف بن لهواسف أن الله خلق الدنيا، فلما خلقها أستحسنها، ثم فكر هل هاهنا ضد يدخل عليه، قال: والفكر رديء، فتألف من فكره إبليس، فمثل بين يديه، ومازال يخلق الظلام والأجسام الشرير كالحيات والعقارب والأمراض والأسقام فيقيم بإزاء كل خلق لله خلقًا لنفسه، فلما خلق الله النار خلق إبليس بإزائه السنور، إلى غير ذلك من الخرافات السخيفات مما هو مذكور عندهم، وقد ذكره للناس عنهم وأخذوه منهم إلي قولهم: وأن الله نزل من السماء إلى

الأرض لمحاربة إبليس بملائكته، وأن إبليس لقبه بشياطينه فحاربه أكثر من ألف سنة، وأن إبليس هزمه وحاصره في بعض البساتين، وأن الملائكة سعت بينهم في الصلح فتهادنا سبعة آلاف سنة على أن يرجع إلى مستقر ملكه في سمائه ويترك إبليس في الأرض يصنع ما يشاء إلى انقضاء مدة الهدنة، وأن الملائكة أخذت سيف كل واحد منهما فعدّلوهما. فهذا هو أصل دينهم، وفيه من السخف والجهل والحمق ما هو أكثر من هذا مما[1] هو مذكور في أماكنه.

وأما الفروع، فتجنب الماء، والتطهير بالأبوال، وتعظيم الماء والنار والأرض، وتطهير الحائض والنفساء ببول البقر، يتولى ذلك منهم الهربذ، يجردها ويباركها ويباشر غسل فرجها بيده، ويرى بعينيه، ويأخذ منها من الأجر ما هو معروف مذكور، وفي يده ريشة من ريش النسر يدخلها في فرجها ثم يخرجها لينظر زعم نقيت أم لا، وشرع لهم وطء المغنيات، وفرض على زوج المرأة إذا أراد السفر أن يوكل من يرضى، وشرع لهم نكاح الأمهات والبنات، وأوجب عليهم طاعة الملوك والانقياد لهم في كل ما يأمرونهم، وأمرهم بإقامة النوروز وأنه أعظم الأعياد، وزعم لهم أن الشياطين كانوا ظاهرين مختلطين بالناس يؤذونهم كل الأذى، وأن إبليس أخذ المقادير والنهايات وهو الذى تسميه الفرس قيما، وزعم أن إبليس أخذ المقادير والنهايات من الناس فصاروا[2] يأكلون فلا يشبعون، ويشربون فلا يروون، ويذهبون لحوائجهم فلا يهتدون، وأنه أخذ الأنوار فأظلمت الدنيا عليهم، إلى أمور كثيرة يزعم أن إبليس بلغها منهم يطول شرحها. وأن جمشاذ الفارس أستأمن إلى إبليس وصار في عسكره، وتنصح له، وخدّمَهُ وقرب منه، وتقرب إليه بكل شيء لتخليص الناس من شره، وأنه لما اختص به طلب المقادير والنهايات التى أخذها إبليس فلم يجدها في خزائنه، وإذا ابليس لشدة كيده قد ابتلعها لئلا تصل يد أحد إليها. ففطن ذلك جمشاذ الفارسي، فرأى إبليس وهو معه في أرض الهند نائمًا

---

(١) في المخطوط: ما.

(٢) في المخطوط: صاروا.

وحده منفردًا من عسكره، فأعدّ خيولاً، وأدخل يده في دبره وأخذ المقادير والنهايات واستوى على الخيول، فلما صار بأرض فارس أضاءت الدنيا وتندّت الأرض بعد اليبس ورجع إلى الناس المقادير والنهايات، فلهذا صاروا يوقدون النيران ويصيبون المياه ويظهرون السرور ويتوفرون على اللذات في النواريز. وأن يد جمشاذ هذا الفارسيّ اسودّت اسوداداً قبيحًا فاحشا لإدخاله إياها في دبر إبليس، ففسلها بكل شيء فما نقيت، فشكا إلى الله ذلك، فأوحى إليه غسلها ببول البقر فنقيت، قالوا: لهذا شرع زردشت غسل الحائض والنفساء ببول البقر. وزعموا أن جمشاذ هذا كان قبل زردشت، وحرّم عليهم افتضاض الأبكار لأجل الطعن في الدّم وهو الذى يسمونه سولاسم، فمن يمسك بدينه منهم يتوفى ذلك ويحتال لافتضاضها، إما أن تتوليي هي ذلك[1] لنفسها بإصبعها أو بغيره إلى أن ينقضي الدم. ولهم في فروعهم فواحش آخر، مثل: أكل الميتة، وهو ما يشدونه من البقر الشد الوثيق ويأمرونها بصعود الجبل ويقولون لها: قد أمرناك وأعذرنا إليك فلم تفعلي، فيضربونها إلي أن تموت، ثم يأكلونها، وهذا الذي يسمونه يَزْدَ أن كشْت، تفسيره، قتيل الله، إلى غير ذلك من حمقهم. فلما جاءهم الإسلام، كان حذيفة وسلمان وغيرهما من الأفراد لا شغل لهم إلا قراءة القرآن ودرسه وتعليمه، والظهور للناس، والمشي في الأسواق، والجلوس في الطرقات. فكانوا يسألونهم عما يقرؤون وعما في كتابهم فيفسرونه للتراجمة ولمن يفهم، فيذكرونه لهم، ويرجعون إلى عقولهم فيما يسمعون من جلال الله عز وجل وعظمته وآياته في كل شيء في مثل قوله: ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾[2]، وما في قوله في سورة الروم: ومن آياته، ومن آياته، ومن آياته، غير مرة، إلى غير ذلك.

وعلّم الصحابة به أعظم من علّم من بعدهم، فنظر القوم إلى أصول صحيحة يشهد العقل بها، وفروع زكية تدعو إلى التمسك بأصولها، ووجدوا

---

(١) مكررة في المخطوط.

(٢) سورة الذاريات آية ٢٠-٢١.

الصحابة يعلمون بما يقولون، فأسلموا، وتبادروا إلى الإسلام طوعًا من تلقاء أنفسهم، وجاهدوا في سبيل الله كما قد عرف الناس، وبقايا ذلك اليوم بخراسان خاصة.

وهذه كانت سبيل النصارى بمصر والشام وأرمينية، فديانات النصرانية في الأصول على تلك الجهالات والكذب كما قد تقدم لك ذكره، وفروعهم في النجاسة والقذارة كما قد عرفت، ورأوا من الصحابة في المذاكرة بالقرآن والمواظبة على درسه، فأسلموا اختيارا وطوعا من تلقاء أنفسهم، وجاهدوا في سبيل الله عز وجل.

وأما خاص المجوس بجور وإصطخر، فعندهم أن الله مات جل والله عن قولهم وأنه خلف ابنين، أحدهما غلب على السماء وهو الخير، وأن الآخر غلب على الأرض وهو الشرير. وقد كان عامل لعمر رضي الله عنه كتب إليه يعتذر من قلة المال ويقول: أسلم الناس وقلت الجزية، فأنكر عليه عمر هذا الاعتذار وكتب إليه: إن الله بعث محمدًا ﷺ هاديًا ولم يبعثه جابيًا، وصرفه ولم يستعمله لحزنه على قلة المال وحرصه على الجباية.

وكان خلفاء رسول الله ﷺ يقولون لعمالهم: ارعوا الناس ولا تجبوهم، فإن الله بعثنا رعاة ولم يبعثنا جباة، وإن مَنْ بعد نامِنَ الأمراء سيصيرون جباة لا رعاة، فإذا أفعلوا ذلك ذهب الحياء والوفاء وقلت البركات، فالزموا الإسلام.

ولما دخل عمر الشام تسامع به النصارى ومني ها من ملوك الروم ممن أقام على الذمة، فأحبوا أن يروه، فخرجوا على براذينهم وخيولهم في زيهم ومراكبهم وملابسهم، فرأوا المسلمين يدخلون أولاً، أولاً، فيقولون لهم: أين الملك؟ فيقولون لهم: هو في الساقه. وتلقاه أبو عبيدة والأمراء، فجاء على جمله ومعه مولى على جمل آخر، فانتهى إلي ماء فنزل ونزع جرموقيه وأخذ

برأس بعيره وخاض الماء، فقال له أبو عبيدة: لقد صنعت صنيعًا عند أهل هذه الأرض، كأنا أبا عبيدة كره له كل هذا التواضع والتبذل وهو سلطان المسلمين، وعدّوه كثير، وهم يرونه، وقد سلبهم ملكهم وعزهم، وعيونهم وجواسيسهم معه يرون ذلك ويبلغونه ملك الروم، وللروم عناية شديدة بمعرفة حال عدوهم، وضنونهم سيئة، وتيقظهم دائم، حتى أن لهم إلى هذه الغاية مع ضعف الإسلام وذهاب أهله جواسيس وعيونًا متوالية إلي أقاصي خراسان، وفي كل الإسلام، ومن يصير لهم في مكة في كل سنة فيشهد الموسم ويرجع إليهم بالخبر.

فقال عمر لأبى عبيدة: هاه، رافعًا بها صوته، لو غيرك يقولها يا أبا عبيدة، كنتم أذل الأمم، فأعزكم الله بالإسلام، ومهما تطلبوا العز بغيره يذللكم الله.

ولما ورد الشام وقدم الجابية وهو على جمل أورق، تلوح صلعته من الشمس، ليس عليه عمامة ولا قلنسوة، بين عمودين، ووطؤه فرو كبش نجديّ، وهو وطؤه إذا ركب، وفراشه إذا نزل، وحقيبته شملة محشوة ليفًا، هي وسادته إذا توسد، عليه قميص من كرابيس قد انخرق بعضه. ولقيه أمراء والأجناد في مواكبهم، فكلما لقيه أمير منهم فسلم عليه قال له امض، فردّه، ولقبه الأسقف، فقال حين رآه لاساقفنه: ثكلتكم أمهاتكم، هل رأيتم رهبانية أو ديرانية أو سياحة مثل هذا، هذا ملك الأرض، فانظروا إليه وإلى حاله.

وقد كان قال لعامله على أذرعات وقد قدم عليه، وعلى عمر قميص من كرابيس، فقال لعامله: خذ هذا فاغتله وارفعه، ففعل، وقطع عليه قميصًا قبطيًا فأتاه به وقال: هذا قميصك وهذا قميص قطعته عليه لتلبسه، فمسه فوجده ليّنًا فقال: لا حاجة لنا به. ولما قدم دمشق وصار في يوم الجمعة نام عمر فجاء عامله على دمشق فسألهم ما يريد أمير المؤمنين أن يلبس إلى الصلاة، وهل يلبس غير لباسه الذى كان عليه، قالوا: لا، ما يلبس غيره، فكره ذلك عامله وخاف أن تزدريه البطارقة وملوك الشام بعد هيبته في صدورهم

وصوته فيهم، فأمرهم عامله أن يغسلوا قميصه، فإنه إذا قام من نومه فوجده رطبًا لم يلبسه أعطيناه غيره فلا يجد بدًا من أن يلبس. فلما انتبه عمرو أراد أن يمضي إلي المسجد للجمعة وعاد بقميصه فوجده رطبًا قد غسل، فلامهم[1] في ذلك، قالوا: نأتيك بغيره، قال: لا ألبس غيره، فعصره ولبسه وصعد المنبر وقد كان أبطأ من أجل القميص، فجعل يعصر ما بقي فيه من الماء وهو على المنبر، ويمدّ كمه فلا يبلغ أصابعه، وهو قميص غليظ، وقال لهم: إنما حبسني أن قميصي هذا غسل، فلما نظروا إليه وإلى هيبته أقبلوا يبكون وينتحبون من كل ناحية ويقولون: ولا رهبانية ابن مريم، ولا رهبانية ابن مريم، مرتين، ما رأينا ملكا في رهبانية أعجب من هذا.

وقال الروم: هذا الذي غلب فارس والروم وأخذ كنوز كسرى وقيصر، فقال عامل عمر: فكان والله الذي فعل أهيب في صدورهم وأبلغ مما أردنا، وجاءت هيبة الدين والتقوى.

وهذه كانت سيرة خلفائه وأعوانهم كبني مقرن، وأبي عبيدة، ومعاذ ابن جبل، وشرحبيل بن حسنة، وعتبة بن غزوان، وسعد ابن أبى وقاص، وأمثالهم من السابقين والتابعين بإحسان، لا يحصون لكثرتهم. والذين رغبوا فيما أحله الله لهم وأباحهم إياه كعبد الرحمن بن عوف وأمثاله، فقد كانوا يبذلون وينفقون في سبيل الخير، ثم لا يعرفون من التواضع من عبيدهم ولا يفرق بينهم وبين عبيدهم وفقرائهم، فكانوا كما قد قيل فيهم لا يحوي رجاؤك ما حوت أيمانُهم، ولا تسري همتك إلى حيث سرت أقدامهم، لم يزدهم الله رفعة وتشريفًا إلا ازدادوا هيبة وإجلالا، ولا تسليطًا وتمكينًا إلا ازدادوا عن الدنيا عزوفًا ومنها تقللاً، ولا تقريبًا واختصاصًا إلا ازدادوا من رعيتهم قربًا وبالمساكين رأفة وعليهم حدبًا وبهم رحمة.

---

(١) في المخطوط: لا مهم.

ولقد قال عبد الله بن سلام وغيره لأولئك الذين شغبوا على عثمان، كحرقوص بن زهير، وخالد ملجم، وسودان بن حمران: يا قوم، إن سلطانكم يقوم بالدرة، وما سمعنا بسلطان يقوم بالدرة قبله، وإن قتلتموه لم يقم إلا بالسيف، لا تسلوا سيف الله عليكم، فوالله إن سألتموه لا تغمدوه، ويلكم، إن مدينتكم محفوفة بملائكة الله مذخّلها رسول الله ﷺ وإلى اليوم، والله لئن قتلتموه لتتركنها، فلا تطردُوا جيرانكم من الملائكة.

وقد قلنا قبل هذا إنما لم نجعل زهد رسول الله ﷺ وخلفائه وأصحابه دليلاً على صحة الإسلام ونبوة النبى ﷺ فإن ذلك إنما يدل عليه ما قدّمنا من الأدلة وأمثاله، ولكن استدللنا بزهدهم على محبتهم لنبيّهم، وأن ظاهرهم كباطنهم، وسريرتهم كعلانيتهم، وعلى بصيرتهم في دينهم، وأنه لم يكن لنبى من الأنبياء عليهم السلام صحابة مثلهم، وأنهم خير أمة أخرجت للناس.

واعلم أنك لا تكاد تعدم من يطعن فيما معك من هذه الأخبار لجهله. فإن هذه الأخبار التي معك من كلام الوليد بن المغيرة إلى غير ذلك، كلها قد جاءت مجيئًا صحيحًا كالقرآن، وإن كان أكثر الناس لا يعلمون ذلك. ألا ترى أن لرسول الله ﷺ من الغزوات والسرايا والبعوث أكثر من خمسين ولا تعرف العامة ومن جرى مجراهم منها خمسة، وهم يعرفون أبا بكر الصديق في الصحابة ولا يعرفون أبا طلحة وأبا قتادة، ويعرفوه من أزواجه خديجة وعائشة ولا يعرفون سودة بنت زمعة وصفية بنت حيي وغيرهن من أزواجه فإنه ﷺ تزوج خمس عشرة ومات عن تسع، وكان له من خديجة أربع بنات: زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة، وكان له تسعة أعمام ولا يعرف العامة منهم أكثر من ثلاثة، وكان له سبع عمات ولا يعرفون إلا واحدة، ومثل هذا كثير. ولسنا نريد بقولنا ها هنا العامة كالملاحين والحمالين والفلاحين، ولكنا نريد من لم يباشر هذه الصنعة وإن كان من الخلفاء والوزراء أو القواد والكتاب وكائن من كان.

فإن قيل: فإن هذا الدين وإن ظهر على الأديان كلها وكان أقواها وأعزها فما استأصلها ولا قلع أصولها، فقد بقي في يد الروم بقية من ممالكها وإن

كان الإسلام قد أخذ أكثرها وعامتها، ويقي في يد الهند بقية، قيل له: إنه لم يقل أنه مستأصل الديانات ولا الممالك كلها حتى لا يبقى شيئًا منها، بل قال: ليظهره على الدين كلّه، وقد ظهر وغلب، فصار أعزها وأظهرها وأقواها، فقد أستوفى الخبر شرطه؛ ومع هذا فقد فرض الجهاد على أمته إلى يوم القيامة، فدلّ أنه تبقى من الشرك بقية، فقد أحدق الصدق بكل ما قالوا، فما هاهنا عيب يكون لطاعن.

فإن قيل: إن الرّوم قد ارتجعت أكثر ممالكها التي أخذها المسلمون منها، حتى لو قدّر ما ارتجعوه من جزائر البحر وما في البر من الثغور الشامية والجزيرية وأرمينية وأذربيجان، لكان يكون في الكوفة إلى بخارى بلدان عامرة، ثم من بالاحساء والمغرب وما يلي المغرب إلى أن يقارب العراق يعتقدون عداوة الأنبياء كلّهم ويخصون نبيّكم محمدًا بفضل عداوة، ويجردون في القصد إلى إماتة شريعته واستئصال دعوته كما قد عرف ذلك من تصفح واعتبر، وكما لهم من الآثار في قتل المسلمين والحجّاج، وغزو مكة والكوفة والبصرة وباليمن وبالشرق والغرب، وإن تستروا بالباطن، فكيف يكون الآن ظاهرًا على الأديان كلها.

قيل له: إنه لو ارتد جميع أهل الدين حتى لا يبقى عليه أحد من الناس كلهم، لما قدح ذلك في الخبر الذي خبر أنه يظهر على الأديان كلها، لأن ذلك الخبر وتلك المعجزة قد صارت إلي ما قال وكما أخبر، فظهر على الأديان كلها فلما استوفت شرائطها وانتهت إلى حدودها فما قصرت عن شيء قاله عليه السلام أو شرطه.

ثم في غلبة الروم والقرامطة وغيرهم من أعداء الإسلام على ما غلبوا دلالة أخرى على نبوته عظيمة، فإنه قد مرّ، أن بعد مضي أصحابه ثم الذين يلونهم، وفي أخر الزمان، ستضعف بصائر أهل ذلك الزمان، ويكرهون الموت، ويشتد حبهم للدنيا وحرصهم على البقاء، فسيظهر عليهم عدوهم ويغلبهم. والأخبار في ذلك أصح وأقوى من كل قويّ، وهي كثيرة، ومجيئها كمجيء

القرآن، حتى أنه ﷺ حين وقت المواقيت، وقت ميقاتا لأهل العراق والعراق إذ ذاك في أيدي الفرس، ووقت ميقاتا لأهل الشام والشام إذ ذاك في يد الروم، وكذا غيرها من الأمصار، وذكر ظهور أمته عليهم واستقامة الأمور لهم، ثم ذكر اضطرابها، حتى يقول: ومنعت مصر أردَبّها ودينارها، ومنعت العراق درهمها وقفيزها، ومنعت الشام كذا، حتى يجيء في الأثر، ليخرجُنّكم كما أخرجتموهم كفرًا كفرا، يعني بلدًا بلدا وقرية قرية، لأن أهل الشام يسمون القرى الكفور، فيقولون: كفر طاب وكفر ثوبا وكفر كذا لقرى كثيرة. حتى يذكر آخر الزمان، وإن الأمم تتمالأ على أمته كما تتمالأ الأكلة على قصعتها، فقيل يا ر سول الله أمن قلة يؤتون، فقال: لا، إنهم أكثر ما يكونون ولكن الوهن والفشل، فقيل: يا رسول الله ما الوهن والفشل، قال: حبّ الدنيا وكراهة الموت.

وقد وجد أهل الاعتبار ذلك، فإن أبك الخرمي صاحب الخرمية من البذ من أرمينية وأذربيجان، ابتدأ في أول أمره وتستر بأنه من المسلمين ويدعو إلى الإسلام وإلى المهدي من أهل بيت رسول الله ﷺ، فما قوى وظهر كان من أمره ما هو معروف، فكدّ السلطان في زمانه وأتعبه، فكان المعتصم ابن الرشيد، فأرسل با بك إلى ملك الروم وهاداه ولاطفه وتقرب إليه ببغض الإسلام والمسلمين، وأنه إنما تستر بالاعتزاء إلي المهدي حيلة عليهم وسخرية منهم، وقال: إني قد شغلت ملك العرب عنك فما يتفرغ لغزوك فإن فرغ مني تفرغ لك، فانتهز الفرصة لتنهنه عني وأنهنه عنك، ففعل ملك الروم ذلك، وسار حتى فتح ربطره وكان له من الأثر في المسلمين ما هو معروف.

وكان له مع صاحب الزّنج من الحرب مثل ذلك أيام المعتمد، فإن صاحب الزّنج شغل السلطان عن ملك الروم فأعانه ملك الروم، وانتهز الفرصة وسار فأخذ لؤلؤة من أيدى المسلمين، وهي بلد عظيم ومصر جليل.

وكان صاحب الزنج يدّعي أنه المهدي، وآثاره معروفة، وسيرته في المسلمين معلومة في آن آمنهم ثم قتلهم بعد الأمان وقتل الأطفال، إلى غير ذلك. وكان يذكر أنه علوّي، ولق أخذ أبا يعقوب الشحام فقال له: لم لا تجيء

أنت وأصحابك فتجاهدون معي وتأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر، ولكنكم معشر المعتزلة منافقون تقولون بما لا تفعلون، فقال له أبو يعقوب: أجيب عن هذا وأنا آمن، قال: نعم، قال: أنا آمن قبل الجواب وبعد الجواب على نفسي وأهلي ومالي، قال: نعم فتوثق منه ثم قال له: أخبرني أيمّا خير، أنت أو عليّ بن أبي طالب، قال: بل عليّ، قال: فأيما شر من عاداك أو عادى عليّ بن أبي طالب، قال بل من عادى عليًا. قال: فهل بلغك أنه آمنهم ثم قتلهم، لقد خاربوه فما قتل لهم أسيرًا ولا أجهز لهم على جريح ولا اتبع لهم موليًا ولا سبي لهم ذرية ولا هجم لهم علي منزل: ولقد كانت الخوارج مقيمة معه فما بدأهم بحرب وهم يكفرونه، فقد كان ينبغي أن تسلك سبيله لأنك أنت تدعي أنك من شيعته، فقال له: لولا أني قد آمنتك، ولولا ما بيني وبينك لقتلتك. فقام أبو يعقوب وخرج وهرب ولم يأمنه. وقد كان صاحب الزنج قبل أن يملك البصرة يغشى العلماء ويجلس إليهم ويتقرب من قلوبهم.

وهذه كانت سبيل سعيد الذي خرج بالمغرب أيام المقتدر، فإنه لما تمكن برقادة من أرض المغرب، وصار في جيوش، راسل ملك الروم وهاداه وتوده وأغراه بالمسلمين، وبشره بأنه يملك ممالكهم كلها ويستأسف ملك بني العباس، وأن له إخوانًا على مثل رأيه باليمن وبالبحرين وبالكوفة وفي الجبال وبخراسان، وأنه قد سلطه عليهم. وكان يبشره بالمكاره التي تنزل بالمسلمين، وسيرّ جيشا له عظيمًا مع ابن له إلى مصر ليأخذها، وعرّف الروم هذا، فسيرّوا جيشا إلى الثغور، وكان هؤلاء ينصرون أولئك في الثغور، وشغلوا المسلمين وشتتوهم. وكان هذا بعد الثلثمائة للهجرة.

وكان عندهم أن أبا سعيد الحسن بن بهرام الجنابيّ صاحب البحرين يعينهم فإنه كان على رأيهم ومواطئًا لهم وكان عندهم أنه إذا انقضت سنة ثلثمائة ظفروا وظهروا على الإسلام كله، وأن سعيدًا الذي بالمغرب هو المهديّ وهو الذي يغلب ويظهر. وكانوا يكاتبون الشيعة بالعراق في كل مكان بذلك، ويقولون لهم: انتظرونا وكونوا علي أهبة فإنا لا نتأخر. فاتفق قتل أبي سعيد

الجنابي في سنة إحدى وثلثمائة، وأخلف ما ظنوه، وانهزم أولئك الذين نزلوا على مصر ورجعوا إلى المغرب، ورجت الروم بسببي عظيم من المسلمين، وكان ذلك في سنة اثنين وثلثمائة. ثم عادوا إلى مصر بأعظم من تلك الجيوش في سنة سبع وثلثمائة، وعادت الروم إلى الثغور وحرقوا وسبوا، وخرّب هؤلاء بالاسكندرية، والصعيد ونهبوا وانهزموا ورجعوا، وأخذ الروم مَلَطية وثغورها، فهنأهم هؤلاء الذين بالمغرب بذلك، وبشروهم بما يفعله أبو طاهر بن أبى سعيد الجنابي بالمسلمين وبالحجاج، وبقلع الحجر، وبسبي المسلمين، وبقتل الحجّاج، وبسلب الكعبة، وأنا قد شغلنا المسلمين بأنفسهم عن غزوكم؛ حتى كتب ملك الروم إلى المسلمين كتابًا بذلك وأظهر الشماتة بما نزل بالبصرة وبالكوفة وبمكة وبغيرها من وقائع القرامطة بالمسلمين وإذلالهم الإسلام. وقد أجاب عن هذا الكتاب أحمد بن يحيى بن المنجم نديم السلطان، وأجاب عنه عيسى بن داود ابن الجراح وزير السلطان.

وأولاد أولئك الذين كانوا بالمغرب إلى هذه الغاية مقيمون على مسالمة الروم ومقاربتهم ومهادنتهم والتقرب إليهم والشغل بإفساد المسلمين والإسلام. فإن غزا الروم أحد من المسلمين من نواحي الشام ومصر وجاء وابسبي أو أسير أخذهم هذا السلطان منهم وخلع عليهم ووصلهم وبرهم وأكرمهم وأنزلهم أجل المنازل وقال لهم: من أقام منكم عندنا فله الكرامة ومن شاء فليرجع فله الحباء والصيانة، ويرا سلون ملك الروم بأنا ما نغزوكم ولا نتعرض لكم، وما نقدر أن نكاشف في المنع من غزوكم كل المكاشفة، ولا نرد كل أحد عن ذلك، وقد علمتم أن ومن وصل إلينا منكم رددناه مكرما إليكم، ومن آثر المقام كان في عز وفي كفاية، ولنا جيوش وعساكر في البر والبحر قد جاورناكم سيما مذ صرنا بنواحي الشام، ومصر، وإذا قصدتم لناحية فيها عساكرنا رحلوا عنها وخلوها لكم. ولهم معهم أكثر من هذا التفصيل، وإنما أردنا أن نذكر صحة قوله عليه السلام أن أمته في آخر الزمان تكون إلى حب الدنيا والبقاء فيخذلون، وتجتمع عليهم الأمم، وهذا باب من معجزاته.

وبـــاب آخـــر

[إنا كفيناك المستهزئين]

وهو قـــوله: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾[1]. وكانت قريش والعرب قد تفرغوا لمكارهة وتركوا كل شغل، وأفردوا كل قوم بضرب من مكروهه كما كانت تفعل اليهود ذلك به، فكانت خمسة من مشيخة قريش قد تفرغوا للاستهزاء والمنع في المواسم والمحافل من أن يُستمع منه أو يُصغى إلى القول منه، وهم: الوليد بن المغير المخزومي، والعاص بن وائل السهميّ، والأسود بن المطلب الأسديّ، والأسود بن عبد يغوث الزهري، والحارث بن الطلاطلة. فبلغوا منه في الاذلال، فشكاهم إلى الله عزّ وجل فأرسل إليه جبريل عليه السلام فقال له: إن الله تعالى قد أمرني بطاعتك فمر فيهم بما أحببت، فاستند إلى الكعبة، فمرّ به الوليد، فأومى إلى أخمص رجله، وكان قد مر برجل من خزاعة وهو يريش نبلاً له، فوطئ على فصل منها، وكان من ذلك مريضًا ثم اندمل، فانتقض به عند ذلك ومات.

ثم مر به الأسود بن المطلب وبيد النبيّ ﷺ ورقة خضراء، فرمي بها في وجهه وقال: اللهم أعم بصره، وأثكله ولده، فعمي بصره وقتل بنوه: زمعة، وعقيل، والحارث بن زمعة. ومر به العاص بن وائل: فأومى إلى رجله، فركب حمارًا يريد الطائف فطرحه الحمار فدخلت في رجله شوكة فمات.

ومر به الحارث بن الطلاطلة، فأومى إلى بطنه فأكل سمكا مملوحًا ونام، فما كان جوف الليل عطش، فقام إلى قربة فيها ماء، فوضع فاه على فيها فشرب، فمار روى حتى انشق بطنه ومات. وقد علمنا أن كان هناك من كان يستهزئ به، وأن قوله عز وجل: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ قد كفيهم، وقد قرأ ذلك عليهم، فعلمنا أن كان هناك مستهزئين وقد كفيهم.

---

(١) سورة الحجر آية ٩٤.

وباب آخر

[الله يعصم رسوله]

قوله عز وجل ﴿مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ﴾[١] فذكرهم بعصمة الله له منعة لهم من قتله مع وحدته وكثرة أعدائه وحرصهم على قتله واستئصاله وإطفاء نوره، فصرفهم الله عن ذلك، وقد راموه غير مرة وحرضوا عليه.

فانظر إلى هذا الادلال وإلى هذه الثقة بمنع الله منه، فإن هذا قول يغيظ ويغضب ويحرضهم على مكروهه ويبعثهم على قتله ويزيدهم حرصا على استئصاله، وهذا من الآيات العظام، وهو أعظم من صرف الله كيد فرعون عن موسى، فإن بني[٢] اسرائيل بمصر وهم ستمائة ألف على دين موسى وتصويبه سوى المشايخ والنساء والأطفال وإن كانوا مغلوبين بسلطان فرعون وطول مقام موسى مع فرعون بعد ادعاء النبوة سنة واحدة، ومحمد ﷺ أقام بمكة خمسة عشرة سنة، وجاءهم وحيدًا منفردًا بدينه، خالف الأمم كلها من أهل زمانه، ولم يعتصم. بمخلوق، ولا صوّب أحدًا من الأمم ولا من الملوك الجبابرة.

فإن قيل: أو ليس كان عمه أبو طالب يمنع منه، قيل: ليس في هذا قدح فيما ذكرنا، لأنه قال أن أحدًا لا يدفع عني ولا يسوؤه ما نزل بي، وإنما قال في حال وحدته، لا أقتل ولا تقتلوني مع كيدكم لي، وإن ربي أخبرني بذلك، وهو قال لي: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾[٣] وهو قال لي: قل لهم: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ﴾ وهو قال لي: «والله يعصمك من الناس» فلو منع نصفهم من قتله لما قدح ذلك في خبره، ودفع أبي طالب عنه يؤكد أمر حجته، فإنه قد كان على غير دينه، وكان على دين أعدائه، ومع هذا كان يدفع

---

(١) سورة هود آية ٥٥.

(٢) في المخطوط : بنو.

(٣) سورة الإسراء آية ٦٠.

عنه ويقول لقريش: هو الأمين الكريم الوفيّ الذي عرفتموه، وتشفع إليهم في الكف عنه، وقد كانوا مع هذا يضربونه حت يغمي عليه، ويسحبونه، فيقول لبناته وهنّ يبكين: إن أباكنّ لا يقتل بل يؤذي، ويقول هذا للناس كلهم وينالـه عمه أبو لهب والنضر بن الحارث بن كلدة، وأبى بن خلف، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط، وغيرهم من قريش، مع حرص أبي طالب في الدفع عنه، فيقول ﷺ: لا تنالون مني أكثر من هذا، والعقبى تكون لي، ولن أقتل ولا أموت حتى أظهر. فيزدادون غيظًا عليه، ويجددون عزمهم على قتله، ويقول أبو جهل لبني مخزوم: لأقتلن محمدًا، فإن شئتم حينئذ فأسلموني إلى بنى عبد مناف وإن شئتم فدعوا. فقالوا نحن لا نسلمك لشيء أبدًا. فأرصد لرسول الله ﷺ إلى أن وجده ساجدًا، فأخذ صخرة ومشى إليه، فلما دنا ليرضخ رأسه بالصخرة التزقت الصخرة بكفه وولى هاربًا، فأنزل الله فيه: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ - حتى قال : - فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾[1] لأنه معروف العداوة سيد مطاع.

فانظر كيف يقول له: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ * سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾، وقد أرصدوا له للقتل مرات لا يحيها إلا الله، وكان أشد ما عليهم إذا قرأ القرآن وفيه عيبهم وعيب آلهتهم، مثل قوله في سورة ص، وياسين، والفرقان، وما أشبه ذلك، فإنهم كانوا يثورون له ويفورون من أجله، وكان ذلك شديدًا على رسول الله ﷺ لوحدته وضعفه، ولما يعرف من بأسهم وغلظ أكبادهم حتى يقول الله: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا * وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾[2]. وإنما قال: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾[3] لما كان يصيبهم من الغضب والغيظ عند تلاوته القرآن، فأضاف ذلك إلى نفسه لهذا المعنى، لا أنه جعل على قلوبهم

---

(١) سورة العلق آية ٩.

(٢) سورة الإسراء آية ٤٥ - ٤٦.

(٣) سورة الأنعام آية ٢٥.

أكنة ولا في آذانهم وقرا، وهذا كقول رسول الله ﷺ: «شيبتني هود وأخواتها»، لما كان يلحقه عند الفكر فيما يتلوه منها من خشية الله وخوف نقماته، لا أن هود وأخواتها كانت تفعل فيه الشيب. ومثله قوله ﷺ: «حبّك للشيء يعمي ويصم» لا أن الحبّ يفعل العمى والصمم، ولكنه إذا أحبّ الشيء ذهب مكبًا على وجهه لم يثبت، فتبصر عينيه ولا يصغي فيسمع قول من ينصح له، وقد قال الله عز وجل ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلاَّ نُفُورًا﴾[1]، والنذير لا يفعل فيهم النفور، ولكنهم لما نفروا عند إنذاره نسب نفورهم إليه، وهذا من الاستعارة الحسنة، وهو معروف في اللغة. فسلامته ﷺ منهم وهذه حالهم وحاله كمن قال: الدلالة على صدقي أني أخوض هذه النار العظيمة وألبث فيها وأخرج منها سليمًا، فهذه كانت حال رسول الله ﷺ هذه الأمم، فإه أقام بعد ادعاء النبوة بمكة خمسة عشرة سنة بين هذه الشدائد المتوالية والأهوال المتصلة، وهو يخرج إلي المواسم، ويقول في المحافل، ويبرز إلى القبائل، ويعرض نفسه، ويذكر ما يدعو إليه، وهو وحده ومه أبو بكر الصديق أو أبو بكر وعليّ بن أبي طالب، وقريش ترصده وتتبعه برجالها ودهاتّها في التنفير عنه والصد عنه، فأين كان أبو طالب، وكم يكون أبو طالب مع هذه القبائل والعشائر وهم يتوعدونه وهو لا يلين ولا يفتر.

ولقد كان عمه أبو طالب يعز له فيما أتاه من مخالفة دين آبائه ويسأله أن يكف عنهم وأن يلين لهم، ويضرع له ويطاوله ويدبره في كل جهة، ويخوفه بأسهم[2] وسطوتهم وأنه لا يأمن قبلهم، فلا يلين، ويقول يا عم: ما كان لي أن أراهن في أمر الله، حتى يبكى ﷺ من طول معاتبة عمّه له ويقول ما كنت لأفعل. فإذا قال له إني أخاف عليك منهم، إني غير آمن عليك مكر قريش وإن دافعت عنك، فيقول ﷺ : إن ربي قد ضمن لي صرفهم عني، فيقو أبو طالب: يا ابن أخي، ما اطوع ربك لك، فيقول: له: وأنت يا عم لو أطعته أطاعك.

---

(١) سورة فاطر آية ٤٢.

(٢) في المخطوط: بأسه،

وقد مات أبو طالب، وأقام ﷺ بعده وهو على شدته عليهم، وأشد بكثير مما كان عليه في حياة أبي طالب، وغيظهم أشد. فإن القرآن كان يتوالى نزوله بما يكرهون، فيجيب من يجيب منهم رسول الله ﷺ، فيتضاعف غيظهم، ويتجدد عزمهم على قتله واستئصاله، فيجدّون ويشمرّون ويسعون ويرهجون فلا يغني عنهم كيدهم شيئًا، ﴿ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾[1]. ولقد كانوا يمكرون به المكر العظيم، كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾[2] وما كان ليقول هذا عنهم والعدو والوليّ يسمعه إلا وهو كما حكاه عنهم.

وفي هذا المعنى يقول عز وجل: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾[3] أي من كان يظن أن لن ينصر الله محمدًا في الدنيا والآخرة ولني في له بما يدعي محمد عليه، فليجتهد جهده، وليستفرغ وسعه في استئصال محمد وإطفاء نوره وطلب كذب يكون منه، ثم لينظر هل يجد ما يشفي غيظه، فإنه لا يجد ذلك، بل يجد ما يضاعف غيظه، وهذا أيضًا من تلك الأبواب التي تبعث على قتله وتذكر باستئصاله.

وكم كان يلقي من يجيب رسول الله من الذل والضرب والهوان والتجويع والتعطيش والجفاء والسبّ وأصناف المكاره التي يطول شرحها، وهي مذكورة في مواضعها، معروفة لا يشك أهل العلم فيها. حتى يكون مثل عثمان بن عفان مع كثرة ثروته وصلته لأرحامه وشرف رهطه وحلمه وأناته لا يمكنه المقام بمكة، ففر إلى أرض الحبشة ومعه رقية بنت رسول الله ﷺ. وكذلك جعفر بن أبي طالب وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وأم حبيبة رملة بنت أبي سفيان أم المؤمنين. وفر الزبير مع شرفه وشجاعته، ومن شئت من الوجوه والأشراف فما أمكنهم المقام وهذه حالهم، فكيف بالموالي والفقراء وقريش تطلبهم، وتعبر

---

(١) سورة فاطر آية ١٠.

(٢) سورة إبراهيم آية ٤٦.

(٣) سورة الحج آية ١٥.

البحار في طلبهم ويكون لهم مع النجاشي ما هو معروف. ومن هاجر إلى المدينة خدعوه وسألوه زيارة أهله وعطفوه على أبويه ورغبوه في صلة رحمة وأمنوه على نفسه ودينه ما أقام معهم، فكم ممن أجابهم واغتر بهم لما ردوه صفدوه بالحديد وعذبوه، ومن أحسّ منهم بولده قد أسلم قيّدة، كما فعل سهيل بن عمرو بابنه أبي جندل بعد الهجرة، وكما صنع أبو أميمه سعيد بن العاص ابنه خالد بن سعد، فإن أبا بكر الصديق لقبه وعرفه حسن الإسلام، فأجابه، فعلم أبوه بإسلامه فأرسل في طلبه جماعة فأخبروه أنهم لا يجدونه، فقال: الطائف، فجاؤوا الطائف فلم يجدوه، فأخبروه أنه يكون بأعلى مكة في شعب أبي ذر قائمًا يصلي، فأتوا به إلى أبيه، فأنّبه وبكتّ وضربه بمقرعةٍ في يده حتى كسرها على رأسه، ثم قال له: اتبعت محمدًا وأنت ترى خلافه قومه، وما جاء به من عيب آلهتهم وعيب من مضي من آبائهم، وزعمه أن للناس بعد موتهم دارًا يدخلونها فيخلدون فيها، فما أعجب هذا. وأخوته وأهله يشهدون، بل هم ردوه إلى أبيه، فقال خالد قد اتبعته وصدق والله محمد وحاجّه ابنه، فغضب أبو أحيحه ونال من ابنه وشتمه، وقال: اذهب يا لكع حيث شئت، والله لأمنعنك القوت، قال: إن الله يرزقني ما أعيش به، فأخرجه وقال لبنيه: لا يكلمه أحد منكم إلا صنعت به ما صنعت. فخرج خالد، فلقيه أبو سفيان صخر بن حرب فقال: قد فعلتها يا خالد، ما شكرت أباك، ولقد هدمت شرفك الذي ينالك، فقال خالد: بل عمرت ذلك الشرف، قال أنت غلام حدث، لو بسط عليك العذاب لأقصرت.

وصار خالد إلى رسول الله ﷺ، فكان يلزمه، وجعل من لقبه من فوقه يؤنبونه، ويستقصرون فعل أبيه وتركه له، وأنه قد كان ينبغي له أن يبسط عليه المكروه، ويواليه عليه. فأتاه أبو جهل فقال: يا أبا أحيحة، ما أدري أضعفت أم ضجّعْت الرأي أو أدركتك المأقة، قال: وما ذاك، قال: تركت ابنك يتبع محمدًا أو أنت سيد قريش وكبيرها والمطاع فيها، فيتجرأ علينا شبابنا ويقولون: هذا ولدُ أبي أحيحه قد أسلم ولم يصنع به شيئًا، فقال لا ما ضعفتُ، إني لأقوى قريش نفسًا وأكثرها عددًا ومالاً. وأما قولك: ضجعّت الرأي، فما الرأي

عندك في أمره، قال حبسه والتضييق، فقال: والله ضربته حتى كسرت العصا على رأسه، وحرمته القوت، فهذا أشد الأمور عليه، فلم أره حفل بواحدة منها. وأما قولك: المأقة، لقد غاظني أمر محمد أنه أوسطنا نسبًا، وأنه نشأ فينا كأحسن ما نشأ به أحد من الشباب من حسن الحديث وأداء الأمانة وحسن الخلق، فجاء بدين محدث، فرق جماعتنا وشتت أمرنا وأذهب بهاءنا واجترأ علينا. وأخرى إن صدقني ظني - وهو صادق - أنه خارج إلى قوم يقوي بهم ثم يدخل بهم عليكم. قال أبو جهل: لا تقل هذا، فما الفرج لنا إلا في اخراجه وتحويله عن ديارنا، فإنه إن خرج عادت إلفتنا، وعدنا لديننا القديم الذي كان عليه آباؤنا. فخرج من عنده وهو يقول: تَغيّر أبو أحيحة، ما هو إلا الكبر، ما اجترئ عليه بهذا حتى أنسوا ضعفًا. ففر خالد إلى أرض الحبشة.

وإنما ذكرت لك طرفًا يسيرًا من صنيعهم بفتيانهم وأولادهم ومهجهم إذا أسلموا، وشدة الرؤوساء منهم على من لم يبالغ في ذلك، فأمّا ما صنعوا بأبي بكر مع حلمه ونبله وسعة جاهه وكثرة خلّانه من ساداتهم، ثم بمن يليه طبقة طبقة، فأعظم من كل عظيم.

وبـــاب آخـــر

[الأرض يرثها الصالحون]

وهو قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ * إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ * وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[1]. فورثها أصحاب محمد ﷺ كما قال وكما أخبر، وفيه مع كونه دلالاة على نبوة محمد ﷺ لما في الكتب التي أنزلها الله عليهم، ان النبى الأخير من ولد إسماعيل بن هاجر بن إبراهيم، القائم من فاران، هو أعز وأعلى وأقهر من جميع النبوات، وأن أتباعه الصالحين يرثون الأرض ويحيون الحق ويميتون الباطل ويذلون الجبابرة كما هو مذكور في الكتب ذكرا تقدم به

(١) سورة الأنبياء آية ١٠٥.

الحجة عند العلماء، وقد ذكره من أسلم، مثل عبد الله بن سلام ومن يليه طبقة طبقة وللعلماء فيه كتب مفردة، مثل أحمد بن يحيى بن المنجم المعروف بالنديم، ومثل أبي عبد الله محمد بن زيد الواسطي الكاتب، ومثل أبي بكر الزهيري الكاتب، ومثل ابن قتيبه، وغيرهم، فإنهم ذكروا تلك المواضع من تلك الكتب، وما فيها من البشارات والإشارات، فإن أردتها وجدتها، وإن كان فمعك ما يغنيك عنها.

وفي هذا أيضًا دلالة على صحة إمامة أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ وأتباعهم وشيعهم، فإن الله قد شهد لهم بالصلاح وهم ورثوا الأرض. فإن قيل فقد ورثها بعضهم ممن[1] ليس هو في مثل حالهم عندكم، حتى انتهى ذلك إلى القرامطة والروم وأشباههم، ومن يقرب حاله من حالهم، فإنهم قد غلبوا على كثير من الأرض. قيل له: لو ملكوا الأرض كلها لم يقدح ذلك في هذا العلم ولم يؤثر في هذا الخبر، لأنه ما قال: لا يرثها إلا الصالحون، ولا تخرج من أيدى الصالحين.

ومثله قال موسى لقومه: ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[2]، ومثله قوله: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾[3]، وقد خرجت من أيدي بني إسرائيل وملكها بخت نصر وملوك الروم وأمثالهم من الكفرة، وهذا غير مشكل.

وقوله في آخر الآية: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[4] يزيدك علما بأن المراد، أن الوارثين[5] للأرض هم أهل دينه والقائمون بشريعته، وهذا خبر

---

(١) في الأصل: من

(٢) سورة الأعراف آية ١٢٨.

(٣) سورة الأعراف آية ١٣٧.

(٤) سورة الأنبياء آية ١٠٧.

(٥) كتب في هامش المخطوط: الوارث

وبشرى ووعد، وإخبارُ الله لا يكذب، ووعدهُ لا خلف له. فشهد عز وجل لمن قدّمنا بالصلاح، وعند الإمامية وطبقات الرافضة أن أبا بكر وعمر وعثمان واتبدريين والمهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم وأعانوهم على وراثة الأرض حتى أبادوا الأمم وغلبوا ملوك الفرس والروم والترك وغيرهم من أمم الشرك كانوا كفارًا مشركين طلاب دنيا لا طلاب دين/ وأنهم غيروا القرآن، وعطّلوا النصوص، وبدلوا الشريعة من الطهارة والأذان والصلاة والمواقيت والصوم والمواريث والنكاح والطلاق، ورفعوا ما كان ووضعوا ما لم يكن، وشهادة الله لهم بخلاف قول هؤلاء فيهم.

وأنت وإن كنت قد عرفك الله بعقلك بطلان دعاويهم عليهم فاعرفه أيضًا بالسمع، فقد أتاك الله به في غير موضع من القرآن ومن غير القرآن. وفي قوله عز وجل: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾(١) دلالة أيضًا على طهارتهم وعمق إيمانهم وبراءة ساحتهم، فهم أظهروا الدين، وأخذوا الممالك والأمصار ممن قبلهم، والذين من بعدهم إلى طاعتهم رجعوا، وبأمرهم سفكوا الدماء، وبقولهم أخذوا وأعطوا، فلو كانوا مبطلين لما كان الظاهر هو دين رسول الله ﷺ على الدين كله، بل كان ما ذهب إليه هؤلاء الصحابة ظاهرًا، ودين رسول الله ﷺ الذى تدعيه الرافضة خاملا خفيًا ميتًا، فإن الذي يقول الإمامية أنه الحجة وأن الحق معه قد كان مغلوبا مقهورًا، قد أسلكته بزعمهم الخوف عن النطق بالحق والدعاء إلى دين النبى، وألجأه إلى تصديق الكاذبين وتكذيب الصادقين، وموالاة المشركين. والذى قرّره هؤلاء الصحابة من الدين والشريعة والقرآن هو الظاهر على الأديان، القائم به الحجة إلى الآن. فإذا قد أخلف هذا الوعد من قوله: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾، فاعلم ذلك ففيه أتم كفاية.

وهم يقولون ما ظهر بعد، وإنما يتم ظهوره بقيام صاحب الزمان، وجواب هذا: السكوت عنه والتعجب منه، فإنه ليس مع المكابرة مناظرة.

---

(١) سورة (التوبة آية ٣٣ ، الفتح آية ٢٨ ، الصف آية ٩).

وقد علم المتأمل كذب من ادّعى أن دين رسول الله ﷺ كان في زمن أبى بكر وعمر وعثمان ذليلا ميتًا قد أطفىء نوره وقلعت أصوله. وقد علمنا أن في زمان هؤلاء كسرت الأصنام، وهدمت بيوت النيران وتعطل[١] النوزوز والمهرجانات وعيد السلامة وعيد الصليب، وتمزق التقويم[٢] وكسر الأصطلاب، ولما انضاف إلى ذلك من جميل أفعالهم فقد تيقّنّا أن هذا هو المراد من دين الإسلام وهو معنى ظهوره.

وم عجيب الأمور أن أصحاب الزنجاني القاضي قد تستروا بالتشيع، وهم من عداوة النبى ﷺ والطعن عليه وإخراج الناس من دينه بكل حيلة، إذا أرادوا التشفي منه قالوا لنا: الآن انحلَّ أمره وبطل دينه، وأوردوا ما قد ظهر من تعطيل الحدود وأخذ المكوسى وارتكاب المحرمات وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ويقولون: انظروا إلى وجوه قريش واعتصامهم بالتقويم والاسطرلاب، ورجوعهم إلى أرباب هذه المقالات، وتدبرهم بهم دون الاستخارة بالقرآن والرجوع إلى وصايا نبيهم، وغير ذلك مما قدار تكبه الملوك والخاصة. ولو استطعنا تسمية أصحاب الزنجاتي وذكر القرشيين الذين قد سلكوا هذه السبيل والأمصار التي غلب عليها هذا لكان أشفى وأبين، ولكنا لا نقدر على ذلك من الخوف، والله المستعان.

وبـــاب آخـــر

من أياته، لما انزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾[٣]، فجمعهم وقام فيهم وخطبهم ودعاهم إلى مفارقة دين آبائهم، وذكر لهم ما لهم في ذلك من نعيم الجنة إن أجابوا، وما عليهم من عاجل العقاب إن أبوا، وأن الله يبعث عليهم جندًا من جنوده يجاهدونهم مع رسوله ونصرة لدينه مع ما عليهم من عاجل[٤] العقاب، فغضبوا ونفروا ومشوا إلى أبى طالب يشكون ويتوعدون، وأنهم أكثر

---

(١) في المخطوط: تعطيل.
(٢) في المخطوط: تمزيق.
(٣) سورة الشعراء آية ٢١٤.
(٤) في المخطوط: من أجل.

جندًا. وقد ذكر الله ذلك في قوله حاكيًا عنهم ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾[١] إلى قوله: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الأَحْزَابِ﴾، وهذا نزل بمكة قبل الحرب فكان كما قال، فانظر في أي حال توعدهم بهزيمتين، وعلى أىّ وجه أورده على قلوبهم وأثارهم وغاظهم وأوجعهم، فإنها حال كان فيها في قبضتهم وأسيرًا في أيديهم، وهم القوم الذين لا صبر لهم على ضيم، ولا ينامون على وتر، ولا يقيمون على مكابرة الغيظ، كيف يقصر الله أيديهم عنه، ويقيه كيدهم وشرهم، وتلك حالهم، فاحفظ هذا وأمثاله.

واعلم أن أعداء رسول الله ﷺ اجتمعوا وجمعوا كيدهم وقرؤوا كتابه، فزعموا أنه ﷺ في ابتداء أمره وهو مقيم بمكة ما خالف قومه ولا أغضبهم ولا أغاضهم، بل كان مصوّبًا ومقاربا لهم، ألا ترون انه قال لهم: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[٢] وأنه قال لهم: ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾[٣]. قالوا: وإنما توعد بالحرب وزال عن هذا حين صار بالمدينة وفي جماعة. وهذا يقوله ابن الراوندى حين اجتم مع لاوي اليهودي، وساعدهما أمثالهما من الأشقياء حين نظروا ودبّروا وكادوا المسلمين، فانصرفوا عن الضرورات بالتأويلات وسمُّوا الكتاب الذي ضمنوه هذا وأمثاله كتاب الدامغ[٤].

وكل عاقل سمع الأخبار يعلم علمًا يقينًا لا يرتاب به، أنه ﷺ حين ادّعى النبوة وساعة انتحل الرسالة كاشف بدعوة الإخلاص، وأكفر كلّ من خالفه، وادَّعى أنه يظهر ويغلب، وأنه يصير في جماعات وعساكر، وأنه يقتل أعداءه ومخالفيه ويذلهم، وأن العقبى تكون له. ثم أكّد ذلك بأن جعله قرآنًا يتلى.

---

(١) سورة ص آية ٥.

(٢) سورة سبأ آية ٢٤.

(٣) سورة القصص آية ٥٥.

(٤) كتاب الدامغ: أحد مؤلفات ابن الراوندى الملحد.

فمما نزل بمكة من ذلك، قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنتَصِرٌ * سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾(١)، وقوله: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الأَحْزَابِ﴾(٢)، وقوله: ﴿وَلا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾(٣)، أي تغلب ولا تُغلب، وقوله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾(٤) إلى قوله: ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾، فإنهم قد كانوا بمكة يقاتلون أشد القتال، وكانت محنة المسلمين فيها أغلظ، فإنهم كانوا يُضربون ويداسون ويحبسون ويجتمع النفر بعد النفر منهم فيدفعون عن أنفسهم، سيّما حين أسلم عمر، فإنهم عزوا به ونهنه عنهم قليلاً، ثم ما أطاقوا المقام. وأمثال هذه من الآيات مما نزل بمكة كثير.

ثم في قوله: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾(٥) إكذابٌ لهم وتضليل لهم، وهو كقول الرجل لخصمه إذا أراد الرفق به لينقاد له ولينظر فيما معه إذا كان مدلاً بحجته: أحدنا مبطل وأحدنا ضال هالك، لا يشك عاقل أن هذا تعريض بخصمه.

وكذا قوله: ﴿لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾(٦) هو في هذا القول أشد ما كان في إقامة الحجة عليهم، فتأمل قوله عز وجل: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾(٧) إلى قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾(٨) إلى ما بعد ذلك، وإنما هو كقول الرجل لخصمه إذا ظهرت حجته واتضح قوله وبان بطلان ما

---

(١) سورة القمر آية ٤٤ - ٤٥.
(٢) سورة ص آية ١١.
(٣) سورة يونس آية ٦٥
(٤) سورة الحج آية ٣٩.
(٥) سورة سبأ آية ٢٤.
(٦)، (٧) سورة الشورى آية ١٥.
(٨) سورة الشورى آية ١٦.

أتى به خصمه: ما بعد هذا كلام، وما بعد هذا مقال، وما بيننا حجة، وما يحتاج إلى شاهد ولا دليل.

فمن أبين فضيحة ممن طعن على رسول الله ﷺ بمثل هذا بعد أن جمعا كيدهم واستفرغوا وسعهم، ولكنهم لشدة إفلاسهم وقلة حيلتهم وخيبة سعيهم لم يجدوا في الطعن عليه إلا التكذّب عليه والبهت له.

وهم الذين قالوا في قوله: ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾[1]، قالوا: قد أظهر الشك في أمره ورجع عن قوله، وكل عاقل سمع أخباره يعلم باضطرار من قوله وقصده أن لا حقّ إلا ما ان معه ومنه ومن عنده ومن أتباعه إلى يوم القيامة، يعلم هذا من قصده قبل العلم بنبوته، ولهذا نظائر مما يذكرونه، وإنما ذكرت هذا لك لتعرف مقدار كيد الخصوم وظهور فضيحتهم، وهؤلاء هم الغايات في التجريد في طلب معايبه والتفرغ لذلك، يمدّ بعضهم بعضًا ويعين بعضهم بعضًا، ولهم ن يزيح عللهم بالأموال من اليهود والنصارى وغيرهم من أعداء رسول الله ﷺ وممن يتستر بالتشيع، فقد كانوا يأخذون ابن الراوندي وأمثالهم، فيزيحون عللهم، ويجمعون الكتب لهم، ويأتونهم بمن يعينهم ويكتب عنهم ولهم.

وباب آخر
[قيام حجته وظهور أمره]

مما جاء من آياته، وما أخبر به عن سلامته وقيام حجته وظهور أمره ودينه على الدين كله، قوله في سورة نبي إسرائيل وهي مكية: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ۞ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[2]، فتأمل ما في هذا القول من امتهان الخصم وإذلاله وتهيجه وإغضابه وإثارته والعلو عليه،

---

(١) سورة الأحقاف آية ٩.

(٢) سورة الإسراء آية ٨٠ ، ٨١.

وانه مفتضح لا حجة معه ولا حراك به، وهم أشد الناس حرصًا على تكذيبه وفضيحته واستئصاله وإطفاء نوره.

ومثله قوله: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾[1] أي: قد أخرسهم حقك وأسكتهم وأماتهم فما يجدون سبيلا إلى تكذيب، وهذا أشد على قريش والعرب من ضرب السيوف ووقع السهام، وهم المعرفون بغلط الأكباد والفرار من العار.

ومثله قوله: ﴿إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾[2] وقوله: ﴿وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾[3]، فتأمل في هذا فإنه قول مختصر وفيه معان عظيمة، ولقد قال ﷺ: «أوتيت جوامع الكلم واختصر لي اختصارًا».

ولو بلغهم دون هذا عن ملك الصين أو الروم لما صبروا حتى يذبُّوا عن مجدهم ونضحوا عن أنفسهم، فكيف عمّن هو معهم وفي قبضتهم ومنهم، وقد ادَّعى ما فيه كل الرئاسة والسؤدد، وما ترك شيئًا يغيظهم ويغضبهم ويسقط من أقدارهم وأقدار آبائهم إلا وقد أتى به وارتكبه، وألجأهم إلى تكذيبه وإقامة حجة عليه، فما وجدوا إلى ذلك سبيلاً.

ولقد كان يبلغهم أن كسرى ملك فارس يسفه أحلام العرب ويستخف عقولهم، فيقلقهم ذاك ويحزنهم، ويرسلون إليه من يستأذنه في النطق بين يديه فيما بلغهم عنه، ولا يصبرون وإن كانوا مقهورين مغلوبين والملوك تتحيّفهم وتسترقهم[4]، وليس أحد يبكى من الهجاء ويحزن من الضيم غير العرب وسيما قريش، فكيف بهم مع رجل يقيم على هجومهم خمسًا وعشرين سنة بكتاب يتلو فيه ليلاً ونهارًا مثل قوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ

---

(١) سورة سبأ آية ٤٩.

(٢) سورة النمل آية ٨٠.

(٣) سورة فاطر آية ٢٢.

(٤) في المخطوط وتستركهم.

عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ﴾[١] وقوله: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً * أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾[٢] ومثل قوله: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾[٣]، ومثل قوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[٤]، ومثل هذا كثير، فتأمل تجده، وتأمل ما في هذا من الإدلال بالحق والدعاء إلى البحث والنظر، وعرض ما معه على عقول العقلاء لينظروا فيما أتاهم به، والمبطل لا يفعل هذا.

فتأمل مذاهب النصارى والمجوس فإنهم يمتنعون عن البحث والنظر والتفتيش والقياس، وكذا يصنع الفلاسفة، فإنهم ينهون أصحابهم عن المتكلمين ويقولون: هؤلاء سوفسطائية، ويقتصرون على الرضا عن أنفسهم والعجب بما معهم.

وانظر إلى هذه الطائفة: القرامطة التي قد طبقت الأرض، وفيها الملك، واستهوت الأمم، كيف يحلفون من يحييهم على كتمان ما يلقونه إليه، وأن لا يخرج به إلى أحد، ولا يشكو ما به إلى أحد، ولا يعرض ما معه على أحد لينظر ما عنده، هذا مع الملك القاهر والتستر بالإسلام، فتأمل ما في هذا.

ولقد ضاقت قريش ذرعًا بما يسمعونه منه ﷺ ليلا ونهارًا، ويتربصون به الموت فلا يموت، ويرمون قتله مع وحدته فلا يتم. فأجمع رأيهم على هجرته وهجرة الأذلين من بني هاشم، مؤمنهم وكافرهم، إلا من جرّد في قصده مثل تجريدهم، وترك مبايعتهم ومناكحتهم، ومنعهم من ابتياع ما يؤكل ويشرب،

---

(١) سورة الجاثية آية ٢٣.

(٢) سورة الفرقان آية ٤٣، ٤٤.

(٣) سورة البقرة آية ١٧١.

(٤) سورة الأعراف ١٧٩.

والتضييق عليهم والإساءة إليهم، وحصرهم في شعب من شعاب مكة، حتى يقتلوا محمدًا أو يسلموه إليهم حتى يقتلوه أو يمثلوا به. وتحالفوا على ذلك، وكتبوه في صحيفة علقت في بيت الله الحرام بمكة. فمكث، ﷺ ومن معه من أهله في ذلك الشعب أربع سنين متواليات في الحصار الشديد، لا يدخل إليهم ما يتقوتونه إلا بالحيلة والمسارقة، ولا يقدر أن يخرج منهم إنسان في حاجة إلا عن غفلة من المشركين أو ليلاً.

وقد شملهم الخوف فلا يأمنوا إلا من موسم إلى موسم، وأهله يتضرعون إليه بأن يلين لقومه من قريش ، ويمسك عن عيب آلهتهم، أو يرجع عن تضليل آبائهم، ويخوفونه فلا يلين، ولا يزداد إلا شدة وصرامة. ثم أخبرهم بعد أربع سنين: أن ربي أوحى إليَّ أني قد سلطت الأرضة على الصحيفة التي كتبها المشركون فأكلت كل موضع منها فيه ذكر عقوق أو قطيعة وتركت ماسوى ذلك، فقال له عمه أبو طالب وكان كافرًا مقيمًا على دين قريش: يا ابن أخي، انظر ما تقول، فإنى لست آمن إن لم يكن الأمر حقًا أن يشتد علينا قومنا ويزيد أذاهم لنا، فقال رسول الله ﷺ: ما قلت لك إلا حقًا، فامض لشأنك.

فنزل أبو طالب وقريش في أنديتها، فلما رأوه قالوا له: نرجو أن تكون يا أبا طالب جئت لصلاح وخير، وأن يكون ابن أخيك قد أقصر عن شأنه وما نكره من أمره، قال أبو طالب: للخير والصلاح جئت. فلما استقر به مجلسه قال: إن محمدًا أخبرنى: ووالله ما كذب قط قبل أن يقول إن ربه أرسله فيكف الآن، إن ربه أوحى إليه في هذه الليلة أنه سلط الأرضة على الصحيفة التي تمالأتم على كتبها علينا فأكلت منها كل موضع فيه ذكر عقوق وقطيعة ومأثم، فانظروا فيما ذكر، فإن كان الأمر على ما قال فعلام تستجيزون ما أنتم عليه. فأحضرت الصحيفة وفتحت، فوجد الأمر على ما أخبر به النبى ﷺ عن ربه، فخُزي المشركون، وفرح المسلمون، وفرَّج الله عن بنى هاشم، فخرجوا من الحصار الذى كانوا فيه، وعادوا إلى ما كانوا عليه، وكان هذا من الفتوح العظيمة.

والأمر في شأن هذه الصحيفة معروف، يعرفه أهل العلم كمعرفتهم بما كتبه النضر بن الحارث بن كلدة من أخبار رستم واسفنديار، حين دخل إلى الفرس يشكو إليهم رسول الله ﷺ، ويأتي بما يعارض به القرآن. وكالعلم بما كتبه رسول الله ﷺ إلى كسرى ملك الفرس مع عبد الله بن حذافة السهمي، وبما كتبه إلى قيصر مع دحية بن خليفة الكلبي، وبما كتبه إلى المقوقسص ملك مصر مع حاطب بن أبي بلتعة، وبما كتبه إلى النجاشي ملك الحبشة. فأهل العلم لا يرتابون بشيء من أمر هذه الصحيفة، كما لا يرتابون بما قدمنا ذكره. فاعرف هذا فأنه من باب من أعلامه، ولا تظنه من أخبار الآحاد والنفر، وإنه جاء مجيء ما قدمنا ذكره من تلك الأمور التي جاءت مجيء القرآن، ولها نظائر.

وإنما أردنا ذكر شدة قريش على رسول الله ﷺ والمسلمين تلك السنين، فقد كانوا منهم في مثل النار المتأججة.

واستأذن الصحابة رسول الله ﷺ في الهجرة والفرار لما يلقون من الأذى، فأذن لهم، غير أبي بكر، فإنه احتبسه لنفسه، وقال له: أقم عليّ، فلعل الله يأذن في الهجرة فتكون معي، فأقام ومات أبو طالب، واشتدت قريش على رسول الله ﷺ، وقالوا: إلى كم نصبر على سب محمد لنا ولآبائنا وآلهتنا، وإلى كم لا نناجزه، فإما حبسناه، أو أخرجناه إلى حيث نرى، أو قتلناه، خذوا فيما يريحنا منه، وقدموه ولا تؤخروه. فاجتمعوا ودخلوا دار الندوة، وكتموا سرهم، ولم يدخل معهم إلا من انتخبوه من ثقاتهم. فقال قائلهم: انظروا في شأن هذا الرجل، فوالله ليوشكنَّ أن يواتيكم في أمركم بمن قد بايعه من أصحابه، وقد تسمعون وعيده، وأنه يملككم ويملك الأرض. فقال قائل منهم: شدوه وثاقًا واحبسوه، فيكون أسيرًا في أيديكم إلى أن يموت، وقال بعضهم: أخرجوه من بين أظهركم لتستريحوا منه؛ وقال قائل ليس هذا برأي. حتى قال أبو جهل: فإني أشير برأيي: أرى أن يؤخذ من كل قبيلة غلامًا شابًا، ثم يعطى كل غلام منهم سيفًا صارمًا، فيضربونه ضربة رجل واحد حتى يقتلوه، فإذا قتلوه تفرق

دمه في القبائل كلها، فلا أظن بنى هاشم يقومون على حرب قريش كلها، فإنهم إذا رأوا ذلك قبلوا العقل فوديناه لهم، وقطعنا عنا شأفته واسترحنا منه.

فأجمعوا على هذا الرأي، ورسول الله ﷺ لا يعلم ذلك، ولا أحد من المسلمين. فأتاه جبريل فأخبره بما عزموا عليه، وأمره بالهجرة. فاجتمعوا ببابه ينتظرون اجتماع الفتيان ليقتلوه في ليلته، فخرج وهم ببابه وهو يتلو: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾(١) وجعل على رؤوسهم التراب، ومضى إلى بيت أبى بكر في الهاجرة، وقد كان يأتيه في كل يوم مرة، فأتاه في ذلك اليوم مرتين: في الهاجرة وفي ساعة مبكرة، وخلا بأبى بكر وأخبره بما عزمت عليه قريش، وبما أتاه جبريل به، وقال له: إنَّ ربي قد أمرني بالهجرة وأن آخذك معي، فبكى أبو بكر مسرورًا.

وقد كان أبو بكر أعدَّ راحلتين يعلفهما ورق التمر منذ أخبره رسول الله ﷺ بأنه ينتظر أمر ربه في الهجرة. فخرجا جميعًا من بيت أبى بكر، وصارا إلى الغار، وطلبته قريش فلم تجده صبيحة ذلك اليوم، وطلبت أبا بكر فلم تجده، فتحرقوا والتهبوا، وهاجوا يطلبونه ويطلبون أبا بكر بمكة وشعابها وجبالها، وجعلوا لمن أتاهم برسول الله ﷺ مائة ناقة، ولمن أتاهم بأبي بكر مائة ناقة، أسيرين أو مقتولين. وقد كان رسول الله ﷺ قال لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه تغش: ببردي ونم في مضجعي فإنه لا بأس عليك، ولن يصلوا إليك. وصار رسول الله ﷺ وأبو بكر إلى الغار، وسارت قريش في طلبهما ومعهم قائف.

وحين دخل رسول الله ﷺ وأبو بكر الغار، ضربت العنكبوت على بابه بعشاش بعضها على بعض، فلما انتهوا إلى فم الغار ومعهم القائف يطلب آثارهما؛ فلما انتهى إلى ثور انقطع الأثر، فقال قائل منهم: ادخلوا الغار، فقال أمية بن خلف: وما أراكم للغار، إن عليه لعنكبوتًا كانت قبل ميلاد محمد، فمنذ

---

(١) سورة يس آية ٩.

ذاك نهى النبي ﷺ عن قتل العنكبوت، وقال : إنها جند من جنود الله، وتحرق أبو جهل على فوات النبى ﷺ، واستبد أسفه، وقال : أما والله إني لأحسبنه قريبًا يرانا، ولكن بعض سحره قد أخذ على أبصارنا.

صفة حديث الغار من الجمع بين الصحيحين:

قال أبو بكر: أسرينا ليلتنا كلها، حتى قام قائم الظهيرة، وخلا الطريق، فلا يمر فيه أحد، حتى رفعت لنا صخرة طويلة لها ظل لم تأت عليه الشمس بعد، فعولنا عندها، فأتيتُ الصخرة فسويت بيدى مكانًا ينام فيه رسول الله ﷺ في ظلها، ثم بسطت عليه فروة، ثم قلت: نم يا رسول الله وأنا أنقض لك ما حولك. فنام، وخرجتُ أنقض ما حوله، فإذا أنا براع مقبل بغنمه إلي الصخرة يريد منها الذى أردناه، فلقيته، فقلت: لمن أنت يا غلام، فقال لرجل من أهل المدينة، فقلت أفي غنمك لبن، قال: نعم، قلت: أفتحلب لي، قال: نعم. فأخذ شاة فقلت له: انفض الضرع من الشعب والتراب والقذى، قال: فرأيت البراء يصرف بيده على الأخرى ينفض، فحلب لي في قعب معه كُتبة من لبن، قال: ومعي أداوة أرتوي فيها للنبى ﷺ ليشرب منها ويتوضأ، قال: فأتيت النبى ﷺ وكرهت أن أوقظه[1] من نومه، فوقفت حتى استيقظ فصببت على اللبن من الماء حتى برد أسفله، فقلت يا رسول الله، اشرب من هذا اللبن، قال: فشرب حتى رضيت، ثم قال: ألم يأن الرحيل، قلت: بلى، قال: فارتحلنا بعدما زالت الشمس.

واتبعنا سراقة بن مالك ونحن في جلد من الأرض فقلت يا رسول الله أتينا، فقال: ﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾[2] فدعا عليه رسول الله ﷺ فارتطمت إلى بطنها أذى، فقال: إني قد علمت أنكما دعوتما عليَّ فادعوا الله لي، فالله لكما عليَّ أن أردَّ عنكما الطلب. فدعا رسول الله ﷺ، فنجا، فرجع لا يلقى

---

(١) في المخطوط: أيقظه.

(٢) سورة التوبة آية ٤٠.

أحدًا إلا قال: قد كفيتم ما هاهنا، ولا يلقى أحدًا إلا ردَّه، ثم قال: وهذه كأننى فخذ سهمًا منها فإنك ستمر بإبلي وغلماني في مكان كذا وكذا فخذ منها حاجتك، قال: لا حاجة لي في إبلك. فقد منا المدينة ليلاً، فتنازعوا أيهم ينزل عليه، فقال: أنزل على بنى النجار أخوال عبد المطلب، أكرمهم بذلك. فصعد الرجال والنساء فوق البيوت، وتفرق الخدم والغلمان الطرق ينادون: أيا محمد، يا رسول الله، جاء محمد، جاء رسول الله.

فهذا من آياته العظيمة الباهرة، قد نطق بذلك القرآن، فقال عز وجل: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾(١).

ولقد يئست قريش من رسول الله، وقالوا إنه لا محالة مقتول، لما لجَّ المشركون وألحوا وقصدوا لهذا الكيد. وقد كان فيهم من يكره أذاه والعنف به وإن لم يصدقه، منهم جبير بن مطعم، فإنه كان عنده أنهم سيقتلوه، فخرج حتي لحق بدير من الديارات فكان فيه حتى لا يشهد قتله. فأقام عندهم، فسألوه عن خبره ولأي شيء أقام عندهم، فأخبرهم، وقص عليهم قصة رسول الله ﷺ، وساق دعوته. فعجبوا لذلك، وقال له رئيسهم: تعرف شبهه لو تراه مصورًا، فقال: نعم، إنما عهدي به قريب. فأراه صورًا مغطاة، فجعل يكشف صورة صورة فيقول: أتعرف، فيقول: لا، حتى كشف عن مثل صورته، فقال جبير: ما رأيت شيئًا أشبه بشيئ من هذه الصورة به، كأنه طوله وحسنه وبعد ما بين منكبيه. فقال له الرئيس: فتخاف أن يقتلوه، فقال: أظنهم قد فرغوا منه، فقال له الرئيس: لا والله لا يقتلونه، وليقتلن منهم من يريد قتله، وإنه لنبي، وليظهرنّه الله، ولكن قد وجب حقك علينا فامكث ما بدا لك. فمكث عندهم حينًا.

ثم قدم مكة، فوجد رسول الله ﷺ قد نجا من أيديهم وهرب إلى

---

(١) سورة الأنفال آية ٣٠.

المدينة، فتعجب من قول رئيس الدير، وازداد بصيرة بشأن رسول الله ﷺ فقالت له قريش حين قدم مكة وقد خرج رسول الله ﷺ ونجا من كيدهم: قد تبين لنا أمرك، وعرفنا شأنك، هلم أموال الصبية التي عندك التي استودعكها أبوك، قال: ما كنت لأفعل هذا حتى أموت، يُعبِّر بها ولدي في أمانة، ولكن أدفعها إليهم. فقالوا: إن عليك عهدًا لله وميثاقه لا تأكل من طعامه، قال: نعم.

فقدم المدينة وقد بلغ رسول الله ﷺ الخبر، فدخل عليه فقال له فيما يقول: إني لأراك جائعًا، هلموا طعامًا، قال جبير: لا آكل حتى أخبرك، فإن رأيت أن آكل أكلت. فحدثه بما أخذوا عليه، فقال له رسول الله ﷺ: فأوف بعهد الله ولا تأكل من طعامنا ولا تشرب من شرابنا. وتحدث جبير بحديث أهل الدير وما كان من الصورة، وأنه رأى مع صورة النبى صورة أبي بكر قد أخذ بعقب رسول الله ﷺ قال: فقال أهل الدير: فهل تعرف هذا الذى أخذ بعقبه، قلت: نعم، قالوا: نشهد أن صاحبكم نبيٌ وأن هذا الخليفة من بعده.

ولعظم شأن هذه الآية ما قد أعاد الله ذكرها، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ * إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1] فذكر المؤمنين بهذه الآية، وعظم هذه المعجزة، وما احتملت عليه، مع نجاته منهم، وما أغشى أبصارهم حين خرج وهم ينظرونه، وسلامة عليٍّ رضي الله عنه كما قال له، وما كان من نسيج العنكبوت. وفي الحديث الصحيح، أنا

(١) سورة التوبة آية ٣٨ - ٤٠.

أبا بكر نظر إلى أقدام المشركين فقال: يا رسول الله، لو أن أحدهم نظر إلى قدمه لأبصرنا، فقال: يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما.

وانظر إلى قوله عز وجل: ﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ﴾، أي: فقد عرفتم نصري له حين هاجرتم وتركتموه مع صاحبه وحيدين، فأبطلت كيد المشركين مع كثرتهم ووحدته، وصدقت وعدي بمنعي عنه وعصمتي له، وأكذبت أقاويلهم، وهو معنى قوله: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ فتأمل هذا ففيه آيات بينات باهرات، وهذا الخطاب والعذل والاستزادة إنما هي للمؤمنين. ألا تسمع قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾. أيضًا فلا يجوز أن يقول للعدو ﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ﴾.

ولقد قال العلماء من السلف: إن الله أفرد أبا بكر الصديق بفضل الصبر على جميع المؤمنين من غير تأثيم لهم، كأنه يقول: لو صبرتم مثل صبره ولم تترخصوا لكان ذلك أفضل، فإن أبا بكر يفضل صبره عليهم. وقوله: ﴿لا تَحْزَنْ﴾ ليس بنهي، وإنما هو بشرى، كقوله لموسى وهرون: ﴿قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾[1] وكقوله لأم موسى: ﴿وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾[2] وقوله: «إن الله معنا بالنصر والتأييد، كما قال ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾[3]. وأبو بكر في هذا الحزن ممدوح لأنه خاف على رسول الله ﷺ الأذى والعنف من المشركين، فجازاه الله بزن بشره أنه معهما بالنصر والتأييد. قال أهل العلم في قوله: ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾، يعنى على أبى بكر، فأما النبى ﷺ فقد كانت السكينة عليه قبل ذلك.

ومن حديث عبد الملك بن عمير، عن أسيد بن صفوان، أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال وهو يثني على أبى بكر حين توفى: كنت ثاني اثنين، وصاحبه،

---

(١) سورة طه آية ٤٦.

(٢) سورة القصص آية ٧.

(٣) سورة النحل آية ١٢٨.

والمنزل عليه السكينة، ورفيقه في الهجرة والمواطن الكريمة. وقالوا في قوله: ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾: إنه أيد أبا بكر كما يؤيد المؤمنين من غير أن يروهم، وبشره رسول الله ﷺ بذلك فعلمه وتيقنه بتعريفه إياه. وإنما ذكرنا حال أبي بكر عند ذكر الآية التي هو مذكور فيها، ولأن الخصوم يسألون عن ذلك، ولحاجتك إليه، ولأن الطاعنين على أبي بكر بمثل هذا هم الطاعنون على رسول الله ﷺ بما قدمنا وبأمثاله من الآيات التي يسألون عنها، وجعلوا الطعن على أبي بكر وأمثاله من المهاجرين والأنصار وآكد الطرق إلى تكذيبه، والطعن عليه، والإيحاش منه، والتنفير عنه، وأيسرها التشكيك في صدقه ونبوته، وهم: أبو شاكر الديصاني، وأصحابه: الحداد، وأبو عيسى، وابن الراوندي، والحصري ولكلهم كتب في الطعن على رسول الله ﷺ، وفي نصرة الإمامية وطبقات الرافضة، ولأن الطريق في العلم ببراءة أبي بكر والمهاجرين والأنصار مما رموهم به، كالطريق في العلم ببراءة رسول الله ﷺ مما رموه به.

وبـــاب آخـــر

[البشرى بالظهور والغلبة]

من آياته، قوله عز وجل لرسوله ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾[1]، ومعاد الرجل بلده، وسمي معادًا لأنه ينصرف في البلاد ويضرب في الأرض ثم يعود إليه، وكذلك مثاب الرجل منزله، لأنه يثوب إليه[2]. ومنه قول الله عز وجل: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾[3] يريد أنهم يثوبون إليه كل سنة وفي كل حين، أي يعودون للحج والعمرة. وهذه الآية نزلت على رسول الله ﷺ حين خرج من مكة يريد المدينة، فكان خروجه منها محزونًا ل مفارقة وطنه، فبشره الله بالظهور والغلبة، وأعلمه أنه يعود إلى مكة، فكان كما قال وكما أخبر.

---

(١) سورة القصص آية ٨٥.

(٢) كتب في هامش الصفحة: معاد الرجل بلده، مثاب الرجل منزله.

(٣) سورة البقرة آية ١٢٥.

وباب آخر

[التحدي بالقرآن]

من آياته، وهو قوله عز وجل: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[1]. فما أتوا بمثله مع حاجتهم إليه، فانظر كيف يقطع الشهادة أنهم لا يأتون بمثله، وهذا من التحدي المهيج الذي يغيظ ويغضب، وفي هذا غيوب كثيرة لا يأتي بمثلها حذاق المنجمين ولا يتفق مثلها بالتبخيت ولا بالتخرص.

فإن قيل: فما تنكرون أن يكونوا قد أتوا بمثله، قيل له: لو أتوا بمثله لجاء ذلك مجيء القرآن، ولكان العلم به كالعلم بالقرآن، ولجاء مجيء أمثاله من الأمور التي كانت بينهم وبينه، وما قاله لهم وقالوه له.

فإن قيل: فإن الغلبة والدولة منعت من إظهار ذلك ونشره ونقله والتحدث به لأنه ظهر وقهر في حياته، وقام أبو بكر بعده فقتل مسيلمة، وردَّ الردة، وأسر طليحة، وغزا فارس والروم، وأذل أعداء محمد ﷺ في كل مكان، وأسكتهم وأخرصهم، وأعز أولياءه وأهل طاعته، وكذا من أتى بعده من الخلفاء والملوك، وبعد، وكيف تنقلون ذلك وتذكرونه وأنتم تكرهونه وفيه بطلان قولكم ودينكم.

قيل له: إنك ما تزيدنا على الدعاوى الخالية من كل حجة، وإذا أثبتنا لك بطلاني دعواك الأولى انتقلت إلى دعوى أخرى. فإنك قلت في الأول: أتوا بمثله، فقلنا لك: فأين هو وأين العلم به، فانتقلت فادعيت أن الغلبة والدولة منعت من إظهاره ونقله، فدعواك الثانية كالأولى.

على أن دليلنا هذا قد دلَّ على أنهم ما أتوا بمثله، ولا بما يقاربه، ولا بما يدانيه، ما هناك شيء ينقل ولا يذكر ولا يكتم ولا يستر، ولا فرق بين من ادَّعى

---

(١) سورة الإسراء آية ٨٨.

هذا أو ادعى أن مائة ألف قد أتوا بمثله، وإنما الدولة قهرتهم ومنعتهم من إظهار ما أتوا به.

على أن الدول والممالك لا تأتي ولا تغطي على الأمور التي قد كانت ووقعت، ولا يطمع عاقل فى كتمان ما هذا سبيله وإن ضره ظهوره، وساءه انتشاره، وأسقط من قدره. ألا ترى أن رسول الله ﷺ لما ادّعى النبوة، وأكفر الأمم وفرض مجاهدتهم، وأباح دماءهم وأموالهم وحريمهم، قد ساءهم ذلك وضرهم، وأسقط من أقدارهم، وذهب برئاستهم؛ وقد ودوا أن ذلك لم يكن، فما كتموه، ولا طمعوا في طيّة وتزميله، بل هم تحدثوا بذلك لكل أحد، ونقلوه وعرفوه، وأدوه إلى من لا يسمعه، لأنه ﷺ لم يكن حين ادعى ذلك ودعا إليه له أتباع يخلدون ذلك ويدونونه وينقلونه، وإنما كان يفعل ذلك عدوه.

وتأمل ذلك بالشعر الذي هُجي به، ومن هجاه من الشعراء، وما كان له معه من ضربه وسبّه وأذيته، ومن قتلوا من أعمامه ومن أصحابه، ومن ادعى بعده ومعه النبوة، فإن المسلمين قد نقلوا ذلك وخلدوه ودوّنوه وإن عمهم وساءهم. وانظر إلى الكتب التي صنفت في تكذيبه وفي الطعن عليه وعلى إخوانه من الأنبياء، التي صنفت في دولة الإسلام، وأشد ما كان الإسلام شوكة وغلبة، كالتي عملها الحدَّاد والورَّاق وابن الراوندي والحصري والكندي والوازي وأمثالهم، وادعوا أن فيها الحجة والبرهان في إبطال الربوبية وتكذيب الأنبياء. وأنت تراها مبثوثة ظاهرة، تباع في أسواق المسلمين، لا يسقط منها ـ. والمسلمون كلهم قد كرهوا ذلك وغمّهم، وودوا أنه لم يكن، وإنما كان نها الواحد بعد الواحد مستخفيًا خائفًا لا يظهر ادعاءها، ولا يعلن وضعه لها، بكل يكتم اسمه ويكنى عن ذكره، وإنما يلقيه إلى الواحد بعد الواحد من أمثاله، كما صنع أبو عيسى بكتبه، وترجمتها تصنيف الغريب المشرقيّ، وهي من الظهور اليوم على ما ترى، حتى إنها لتبلغ مشارق الأرض ومغاربها. فالعدو ينشرها للاحتجاج بها، والمسلمون ينشرونها لنقضها والإجابة عنها. فعلمت أن الدولة والممالك لا تؤثر في العلم بالأمور التي قد كانت ووقعت، وبهذا تعلم أنه

ما كان لرسول الله ﷺ زلة ولا هفوة ولا سقطة ولا غدرة، ولا زلت له قدم، ولا بارت له حجة، ولا أخجلة خصم يزيدك بذلك علمًا، أن معاوية وأشباهه من بني أمية قد عادوا أمير المؤمنين وبني هاشم، وغلبوهم، واستولوا على ملك الدنيا، وعظموا نفوسهم بكل ما قدروا عليه، فما أمكنهم أن يجعلوا لمعاوية منزلة لم تكن له وهو سيدهم، ولا أن يجعلوه من الدريين السابقين، ولا من أهل الشجرة، ولا من أهل الشورى، ولا من المهاجرين ولا من الأنصار، وقد ودّوا أن يكون له شيء من ذلك أو من هذه المنازل. ولا أمكنهم أن يخرجوه من جملة الطلقاء وأبناء الطلقاء، ولا أمكنهم أن يخرجوا أمير المؤمنين عن منازله: من كونه من السابقين والبدريين والفقهاء والعلماء والزهاد، ومن العشرة ومن أهل الشجرة، ومن أهل الشورى، وممن اختاره المهاجرون والأنصار للإمامة بعد عثمان، ولا أن يغطّوا على ما سنّه عليّ وفرضه ودعا إليه، من محاربتهم ومجاهدتهم، وقد ودوا أن ذلك لم يكن، وقد ضرهم ذلك كل الضرر، فتعلم أن الدول والممالك لا تؤثر في العلم بالأمور التي قد كانت ووقعت.

وتأمل ما كان لمعاوية من احتيالاته في التوصل إلى الملك، في إطعام عمرو بن العاص مصر، وبادعائه زيادًا، وبمن استماله ببذل الدنيا له، كذي الكلاع، وخالد بن المعمر، ومصقلة بن هبيرة، وأشباه ذلك، وما كان لملك ملك مما هذه سبيله.

فانظر إلى بني العباس لما غلبوا على أعدائهم من بني أمية، ما أمكنهم أن يغطوا على المحاسن التي كانت لهم، ولا أمكن أعداء بني العباس أن يغطوا على المحاسن التي كانت لهم، ومن إقامة المواسم وعمارة الثغور، وغير ذلك من محاسنهم. وأنت تجد ما يكون من مساوئ الملوك، وما يكون من غدرهم وظلمهم، وما يلحق كل نقص وفضيحة بهم ظاهرًا في دولتهم، مع بقاء مملكتهم واتصال عزهم. فتأمل ذلك شيئًا فشيئًا تجده ظاهرًا مكشوفًا، وإن كان ذلك مهيجًا لهم، ومسقطًا لأقدارهم، وقادحًا في نبلهم ورئاستهم، وقد ودّوا أن ذلك لم يكن، روي عن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، قال: إذا

رأيت القوم يَنْتحون في دينهم دون الجماعة، فاعلم أنهم على تأسيس ضلالة.

وتأمل أحوال هؤلاء الباطنية الذين قد تستروا بالإسلام، وبقراءة القرآن، وبالصلاة والصيام والحج، وإظهار التحقق بأهل البيت، وقد أوثقوا أمورهم بالكتمان وبأخذ الأيْمان والعهود على من أجابهم، وتجنبوا استدعاء الأدباء والعلماء والفقهاء، وسلكوا الواسطة، وقصدوا الأطراف البعيدة التي قد استولى على أهلها الغفلة والجهل والقوة، وقصدوا أهل الترفه والعجب والشغل بالدنيا والملك، وتسمّوا بالاسم الحسن من أنهم الشيعة، وغرُّوا المسلمين، فانظر إلى فضائحهم مع هذه الأمور كلها.

فإن أبا القاسم الحسن بن الفرح بن حوشب بن زادان الكوفي النجار، عرف أهل عدن لا عة وجبال لاعة من أرض اليمن، وأنهم شيعة، فصار إليهم مع أبي الحسين محمد بن على بن الفضل من أهل جيشان والجند والمذيخرة من أرض اليمن. وكان هذا أحد المياسير والرؤساء من الشيعة من أهل تلك البلاد، فمكن لابن حوشب، وتساعدا على الدعوة، وكل واحد منهما بمكانه، وتسمى ابن حوشب بالمنصور من آل أحمد، وتسمى الأخر بالولي. ومكثا مدة يتستران بإقامة الشريعة، ثم ظهر منهما الإباحة، وليلة الافاضة، وأولاد الصفوة، ونكاح الأمهات والأخوات والبنات، والمشاركة في الزوجات، وتعطيل الشرائع، وشتم الأنبياء عند التمكن والقدرة. ثم ظهر بين ابن حوشب وبين ابن الفضل من المشاتمة، وبرئ كل واحد من صاحبه، ودعا كل واحد منهما إلى نفسه بأنه إله وربّ، وغزا، وقصد العلويين بالمكاره والقتل وسبي الذرية.

وقد كان نصبَ هذين، الحسين بن أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح الذ زعم أنه الإمام، وهو خليفة محمد بن إسماعيل بن جعفر، وقال لهذين وغيرهما ممن خرج معهما إلى اليمن: إذا ملكتم وغلبتم خرجت إليكم، وجعلنا الملك باليمن، والمهدي يظهر باليمن، وهكذا روينا عن أهل البيت. فلما تمكنوا باليمن، أخرج إليهم ابن ميمون القداح الحسين الأهوازي الداعية من قبله، فطلب منهم مالاً يحملونه إليه، فأعطوه مرة بعد مرة، ثم رجع إليهم وعرَّفهم

أن الحجة خليفة محمد بن إسماعيل يخرج إليهم لينصرون، فشتموه وردوه، فقالوا: قد عرفنا أن هذا كله مخرقة، وهو عرَّفنا بهذا، فلم نسلم الملك إليه، فقال لهم: على كل حال هو عرفكم هذا وخلصكم من الشرائع والإسلام، فاشكروا له وأطيعوه، فشتموه وشتموا من وجّه به. فرجع الرسول إلى الحسين بن أحمد وعرَّفه أن القوم قد أظهروا الباطن وعملوا به وفطنوا له، وتشاتموا وتفاضحوا بينهم. ثم صمد يحيى بن الحسين العلوي رضي الله عنه لجهادهم. وقد كان ابن حوشب هلك وبقي ابن الفضل، فهلك هو وابنه أمام يحيى بن الحسين العلوي كما هو مذكور، وفضائحهم مشهورة عند أهل العلم.

ومن عند ابن حوشب انبثت دعوتهم باليمن والمغرب.

ثم تأمل فضيحتهم بالبحرين، فإن داعية لهم خرج إلى من باب من الشيعة، وقال: أنا رسول المهدى إليكم، وقد قرب خروجه، فأعدوا واستعدوا، واحملوا إليه زكواتكم وأعشاركم وفضول أموالكم. فاجتمعوا، وكانوا نحو ثمانمائة، وأعطوه ما طلب. وغاب عنهم ورع إليهم وأخبرهم عن المهدي: أن للأشياء كلها بواطن، وأن خاصة المهديّ لا يحرم عليهم شيء، وأن المهدي قد أحل لكم كل شيء، وأنه يحل للمؤمن أن يشارك أخاه في ماله وأصله، وأن علامة إيمانه أن تطيب نفسه بذلك كله. وكان فيمن أجابهم: أبو سعيد الحسين بن بهرام الجنابي[1] وكان يبيع الطعام والدقيق بالرادة من أرض البحرين، وكان شريرًا فاسقًا جاهلاً لا يعرف من كتاب الله شيئًا، ولا من سنة نبيه، ولا شيئًا من الأدب، ولا شغل له إلا بالمعاش.

وكان له صديق منهم يعرف بإبراهيم الصائغ داعية لهم، قد وجهوه غير مرة إلى ناحية فارس والأهواز. وكان يظنهم شيعة، فجاء يومًا إلى أبي بكر زكريا يحيى بن نبهان فقال له: اعلم أن هؤلاء القوم على ضلال، كنت مع أبي سعيد الجنابي وقد جاءه رجل من أهل جنابة يقال له يحيى بن علي، فأكلنا

(١) كتب الناسخ في هامش المخطوط: أبو الحسين سيعد بن بهرام الجنابي رأس القرامطة.

عنده فلما فرغنا، قام فأخرج امرأته ثم أدخلها مع يحيى هذا في بيت، وقال لها: إن أرادك الولي فلا تمنعيه نفسك فإنه أحق بك مني. فمضى يحيى ابن نبهان بإبراهيم الصائغ إلى هذا الأمير: على بن مسمار فأخبره بما وقف عليه، فأرصد عليٌّ بن مسمار لذلك وتعرفه، فأخذ الرجل فضربه بالسوط، وحلق رأسه ولحيته، ثم خلى سبيله، وطلب أبا سعيد فهرب إلى جنابة، وبحث عنهم وعن أحوالهم فإذا هم يتسترون بالتشيع ويعطللون الشريعة. وبقي أولاد ابي سعيد وأصهاره في البحرين، فبحث الناس عن أحوالهم وأحوال بني سُنبر وأمثالهم فإذا هم على هذه الحال.

ثم تمكنوا، وعاد أبو سعيد بعد أن صار إلى النيل وسواد الكوفة، ومعه الدعوة ورجالها، مثل حمدان بن الأشعث، وهو المعروف بقرمط، واليه ينسب القرامطة، وخال ابن أبي المليح القرني، وخال عيّدان. وقد كان بالبحرين يحيى الطمامي داعية لهم، فلما تمكن أفسد وغدر، وأظهر الإباحة، وكان شريك أبي سعيد الجنابي في الدعوة، فوثب عليه أبو سعيد وغدر به وقتله، واستولى على الأمر، وغدر بالناس لما ملكهم، وأظهر من الإباحة وتعطيل الشرائع ما هو مذكور. وقال إنه رسول الأمين الإمام حجة الله على خلقه، وهو محمد بن عبد الله بن محمد بن الحنفية، وهو مقيم في بعض هذه الجبال، وهو المهدي، وأن في سنة ثلاثمائة للهجرة يخرج ويملك الأرض كلها. وكان هذا القول والوعد من أبي سعيد في سني نيّف وثمانين ومائتين للهجرة. وكان يقسم قصور بغداد على أصحابه، ويحلف لهم أنه يدخل بهم إليها. ويملكها. فلما كان في سنة ثلاثمائة، قتل أبا سعيد خادم كان لأبي الفضل العباس بن عمرو الغنويّ في الحمام، وكذبت أخباره، وظهرت فضائحه، فخجلوا لذلك خجلة يالها، وتحيروا.

وقد كان على بن عيسى بن داود بن الجراح وزير المقتدر بالله كاتب أبا سعيد يقول له: زعمت أنك رسول المهدي، وقد قتلت العلويين، وسبيت آل

الأخيصر العلويين، ومن باليمامة، واسترقت العلويات، وغدرت بأهل البحرين. وقد كان حاصر أهل هجر أربع سنين ومنعهم الأقوات، وحبس عنهم الماء، ثم وصل إليهم وما بهم رَمَق فأتى عليهم، وقتلهم عن آخرهم. وقد ان صنع بأهل القطيف شبيهًا بذلك، وغدر بهم أقبح غدر.

فأجاب ولد أبى سعيد علي بن عيسى عن كتابه بأن أهل البحرين بغوا علينا، وغدروا بنا، ورمونا، وقالوا: إنا نشترك في أزواجنا، ونرى الإباحة وتعطيل الشريعة، وقد كذبوا علينا، ونحن قوم مسلمون وما نُحل من اتهمنا بغير الإسلام.

فكتب إليهم عليّ بن عيسى: إن كنتم صادقين فأطلقوا من في أيديكم من أسارى المسلمين، فأطلقوا منهم نحو ثلاثين ألفًا، وأظهروا الإسلام والصلاة وقراءة القرآن، وخجلوا من الفضيحة.

ومما كانوا يقولونه ويقوله أبو سعيد من خروج المهدي في سنة ثلاثمائة لحقهم الخجل والفضيحة. وكان بنو بسطام، وبنو القاسم بن عبد الله، والعزاقريّ وأمثالهم يستولون على دولة المقتدر بالله، وكانوا يتشيعون. فراسلوا أولاد أبي سعيد وقالوا لهم: أنتم خرجتم أيام المعتضد والمكتفي، فلما صار الأمر إلى هذا الصبى المقتدر بالله قعدتم، قوموا فنحن كتابه وأصحابه، والدولة لكم، ولا يوحشنكم قتل أبي سعيد وما كان منه، فإن الناس قد تناسوا ذلك. فقالوا: هذا الرجل على بن عيسى رجل صالح، وما دام هو الناظر فما تختار مخالفته. فلما قبض السلطان على عليّ بن عيسى، أطلق من ببغداد والكوفة من الشيعة الطيور إلى البحرين بذلك، فغزوا البصرة على غفلة وغدروا بهم أقبح غدرة، ثم غزوا الكوفة، وُسَّر بهم الشيعة وقالوا: أبو طاهر بن أبي سعيد وليّ الله وحجة الله وخليفة المهديّ بالبحرين، يخرج عن قرب، وأبو طاهر خليفته، وهو الذى يأخذ الأرض له ويكون ملكة بالبحرين. فبادر من أهل الكوفة وسوادها خلق كثير، وقالوا: نهاجر إلى بلد المهدي قبل ظهوره،

فنقلوا أموالهم وعيالهم، ومن منهم ببغداد والكوفة وسوادها يراعون أمر المقتدر، وينقلون أخباره إلى أبى طاهر بن أبي سعيد.

وقد كان حصل لأبي طاهر من أموال الحجاج والخراسانية والكوفة والبصرة بيوت كثيرة، وأطمعه الشيعة ببغداد في السلطان، وعرَّفوه ضعفه، وأن النجوم تدل على أن أبا طاهر يغلب السلطان، وأنه يدخل بغداد ويستولي على الملك. فتحمل أبو طاهر، وحمل أهله وعياله، وسار يريد بغداد، وقال: أنا أدخلها وأدخل دار الخلافة على هذا الحمار، وأشار إلى حمار أسود كان في كراعه. وسار ونزل ظهرًا بالكوفة، ولقيه بن أبي الساج فهزمه، ونادى مناديه أن يكون لنا وقعة مع مؤنس الخصى برصافة الكوفة ونهزمه ويستغنى أهل الكوفة من ذلك النهب، وأسير فأدخل بغداد فى يوم ثلاثاء، وفي يوم طشّ[1]، واستكتب عليَّ بن عيسى، واستعمل على الشرطة أبا الهيجاء عبد الله بن حمادن. وجلس بظهر الكوفة يقسم قصور بغداد على أصحابه، ويتماسكون ويختارون. فلم يخرج مؤنس من الكوفة ورحل من بغداد ونزل بطباطبها، وهي من بغداد على فراسخ يسيرة.

وطال انتظار أبي طاهر له، وكان من ببغداد من الشيعة قد راسلوا أبا طاهر أنه ما بقي عند السلطان إلا مؤنس الخصى، وهو الذي يلقاك، وهو أضعف من ابن أبي السّاج بألف طبقة، وأنت تهزمه وتدخل بغداد. فصبر مؤنس ولم يبرح من طباطبا، وأبو طاهر يراسله: ما انتظارك؟ وإ كنت رجلا فابرز، ومؤنس لا يبرح. فسار أبو طاهر وعبر الفرات، وجاء فنزل بالقرب من مؤنس، فانقلب بغداد، وعبر الكثير من أهل الجانب الغربى إلى الجانب الشرقي، إلا من كان من الشيعة. وانحدر كثير منهم وأحدروا عيالهم إلى البصرة. وخرج إلى أبي طاهر من أهل بغداد من الشيعة وغيرهم من الكتاب سرًا، وبشروه بضعف السطان، وأنهم قد قلبوا له بغداد بالأراجيف، وقالوا له:

---

(١) يوم طش، أى يوم ممطر مطرًا خفيفًا.

بغداد بلد عظيم، وإن لم ترهب أهله بالقتل لم تملكه، فقال: نبيح المؤمنين القتل فيه ثلاثة أيام، قالوا لا تصنع هذا، ولكن سبعة أيام، وتنظم جانبي دجلة بالمصلين من بني هاشم، والقراء، والفقهاء، الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فقال: كذا نفعل.

وأظهر من بالكوفة لعن بني العباس والسلف، وخرج أبو الغيث بن عبيدة العجلي في ثلاثين ألفًا، وأقام أبو القاسم عيسى بن موسى حتى عيدان في البقلية أصحابه، وأظهروا الخلاف، وقالوا: ظهر الحق وقام المهدي وانقضت دولة بني العباس والفقاء والقراء وأصحاب الحديث، وقال قائلهم: ما بقي شيء ينتظر وما جئنا لإقامة دولة، ولكن لإزالة شريعة. فقيل لهم: إن الخصي قد قطع قنطرة نهر بطباطبا، فقالوا: قد عبر أبو طاهر الفرات فلا يعبر نهر بطباطبا، وإنما هو كالساقية بالإضافة إلى الفرات.

فسار أبو إسحاق إبراهيم بن ورقاء الشيباني الأمير، وكان رجلاً صالحًا لا يعين السلطان إلا فيما يحل ويحسن. فسار إلى الفرات في السماويات، ومنع القرامطة من العبور ومن ورود الماء، فضاق صدر أبي طاهر من تأخرهم عنه، فرحل عن مؤنس ورجع إلى الفرات، وصاعد نحو الرقة يقتل وينهب من ظفر به، وقد ظن بعض الناس أنه كان يتوقع من بالمغرب من القرامطة أن يوافيه لوعد بينهم، فما جاءه أحد، فرجع إلى الأحساء، وكذبت أخباره تلك كلها، وكانت لهم من الفضائح ما لا يكاد يحصى.

وكان أصحابه ومن بالكوفة وسوادها له على أحسن طاعة، لا يشكون أنه وليُّ الله وحجة الله، فما رجع بتلك الخيبة، وقد كذبت أخباره وأقاويله، أخذ خواصه يلقون إلى من معه من البوادي إذا قالوا لهم: قتلنا عيالنا واقتسمنا قصور بغداد ثم رجعنا خائبين، وقد قتل ابن أبي الساج صناديدنا وعيون من بقي منا، فيقولون مرة: لهذا القول وهذه المواعيد باطن، ومرة يقولون: إن في كتب الحدثان والملاحم أنا نرجع، ومرة يقولون: سرنا بأمر، وأمثال هذا من الحيل والمخاريق.

ثم سار من البحرين إلى مكة، فوصل إليها في عشر ذي الحجة وبها الحجاج من أهل الدنيا كلها، والإسلام أكثر ما كان، فمنعه من بمكة من الحجاج وغيرهم من دخولها، ونقلوا صناديق البيت إلى ناحية دار بن داود، وحاربوه أيامًا. فلما لم يطقهم، أظهر أنه جاء حاجًا ومتقربًا إلى الله، وأنه لا يحل لهم أن يمنعوه من بيت الله، وأنه أخوهم في الإسلام، وأظهروا أنهم محرمون، ونادوا بالتلبية، واستدعى من قريش من أهل مكة من راسلهم بهم، هو أبو الإمام بها والقاضي في يومنا هذا، فقالوا: كيف تكون حاجًا وأنت في عشية ورودك الحرم قد قتلت المسلمين، فقال: هذا كان بغير أمري ولا رضاي، وقد يكون مثل هذا من الأتباع ومن معرة العساكر، ووجه إليهم بخاتمه وسوطه ليؤمنهم، وحلف هذا القرشي بالأيمان الغليظة أنه قد أمنهم على دمائهم وأموالهم وحرمهم، وأنه لا يؤذي أحدًا منهم، وأنه ما جاء إلا ليحج، إلا أصحاب الجند والسلطان فإنه لا يؤمنهم، وقال: أنا لا أغدر ولا أغر من نفسي، ولو أردت ذلك لأمنت أصحاب السلطان ثم غدرت بهم، ولكن لا أؤمنهم، لأنهم يشربون الخمر، ويلبسون الحرير، ويعينون السلطان الذي يحجب عن الرعية، ويظلم اليتيم والأرملة، ويشرب الخمر، ويسمع القيان. فازداد الناس به اغترارًا، وقبلوا أمانه، وأفرجوا له حتى دخل، ووضعوا السلاح.

فلما دخل وتمكن وسكن الناس، وثب بهم أغرّ ما كانوا، وقال لأصحابه: ضعوا السيف واقتلوا كل من لقيتم، ولا تشتغلوا إلا بالقتل. فلم يزل كذلك ثلاثة أيام، ولاذ المسلون بالبيت وتعلقوا بأستار الكعبة، فما نفعهم ذلك، وقتلوهم في المسجد الحرام وفي البيت، وما زالوا يقتلونهم ويقولون لهم: «ومن دخله كان آمنًا» أفآمنون أنتم يا حمير، أما ترون كذب صاحبكم. وبيته في الأرض. وسلب البيت، وقلع الحجر الأسود، وأبو حفص عمر ابن زرقان صهر أبي سعيد واقف حذاء البيت والسيف يأخذ الناس، وهو على فرسه يضحك

ويتلو: ﴿لإيلاف قريش﴾ حتى (وصل) إلى قوله: ﴿وآمنهم من خوف﴾ قال: ما آمنهم من خوفنا، ظهر الباطن يا أهل مكة، حجّوا إلى البحرين، وهاجروا إلى الأحساء من قبل أن نطمس وجوهًا فنردها على أدبارها.

ثم أمر أصحابه بالنهب، فجمع شيئًا عظيمًا من العين والورق والجوهر والطب، ومن متاع مصر واليمن والعراق وخراسان وفارس وبلدان الإسلام كلها، وحمل مقدار مائة ألف جمل، وأحرق الباقي، وسبي من العلويات والهاشميات وسائر الناس نحو عشرين ألف رأس، وسار إلى الأحساء، فكانت حادثة في الإسلام لم يكن مثلها قط، وأحصوا القتلى عند الدفن، فكانوا عشرين ألف وثمان مائة. ولعلك تستكثر مائة ألف جمل لما ترى في زمانك من سوء حال الإسلام والمسلمين، وإذا تأملت الحال في ذلك الزمان استقلتها، فإن الإسلام إذ ذاك قد كان من السعة ما كان، مستوليًا على الدنيا إلا القليل، وكان يسار أهله على حال عظيمة، وإذا تصورته استقلت ذلك، وإذا تأملت خراسان وحدها، والمسلمون يصلون من نواحي الصين، ثم من نواحي الهند، وكابل ثم عمان، ومشجر عمان، ثم اليمن، وجزيرة العرب وهي أوسع من بلاد الروم، ثم المغرب من الأندلس، والقيروان، والمغرب تشبه لكثرة رجالها وجمالها وبلدانها بخراسان، وأما أذربيجان فيشبه من السعة بما يقارب فارس أو العراق، وإنما ذكرت ذلك لأنا أردنا لا نخلي ما نقوله من حجة، وإن كان الناس قد ذكروه.

فلما صار أبو طاهر إلى البحرين، سلم الأمر إلى ذكيرة الأصفهاني المجوسي وجمع الناس بالبحرين، وقال: معشر الناس إنا كنا ندخل عليكم بحسب أهوائكم، مرة بمحمد، ومرة بعليّ، ومرة باسماعيل بن جعفر، ومرة بمحمد بن إسماعيل، وبالمهديّ، وهذا كله باطل، وهو سر كنا نكتمه ومن قبلنا منذ ستين سنة، واليوم قد أظهرناه، وهذا إلهنا وإلهكم، وربنا وربكم، يعني ذكيرة الأصفهاني، فإن عاقب فبحق، وإن عفا فبفضل، أظهروا اللعن على

الكذابين: آدم، ونوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى ومحمد معشر الأجمين، يعني بالأجمعين قسّين وُجنبلاً[1]، وعرج عمن كان عندهم بالبحرين ومن سواد الكوفة وأهل الكوفة، وقال: معشر الدعاة والخاصة، اذكروا ما عندكم، فذكروا معنى ما جرى بين عبد الله بن ميمون بن ديصان بن سعيد الغضبان وبين محمد بن الحسين بن جهار بخنان المعروف ببندار من أعمال الحيلة على المسلمين، والتستر بالتشيع، والدعاء إلى المهدي، فإذا وقع التمكن، وصاروا في ملك وسيف، أظهروا تكذيب الأنبياء، وتعطيل الشرائع، وقتلوا المسلمين، مما هو مذكور في كتاب ابن رزام، وكتاب عطية، وغيرهما من العلماء.

فأخذ ذكيرة يلعن الأنبياء جهارًا في الأسواق. وتقدم بإحراق المصاحف وبراءة الذمة ممن ترك عنده شيئًا من المصاحف أو التوراة والإنجيل وجمع هذا كله، وأمر بطرحه في الحشوش، والاستنجاء به، ونادى بنكاح الأمهات، والبنات، والأخوات، وذوات المحارم، وبإباحة اللواط، وبأن تطعن البهائم في خواصرها إلى أن تموت، ثم تمون، وبأشياء كثيرة يطول شرحها، وهي مذكورة في كتب العلماء، وقال لهم: تأهبوا فإني سائر إلى العراق لاستئصال دين محمد وقتل أتباعه، فقد انقضت دولته، وقد أحييته ثلاث مرات، واستتبته من إضلال الناس فما تاب، فالعنوه والعنوا الكذابين، يعني الأنبياء. فكانت الأصوات ترتفع بذلك في الأسواق وقتل بني زُرقان وبني سلمان ومن وجوه عسكره في مدة ثمانين يومًا سبعمائة رجل، وأمرهم بأن يعرضوا عليه نساءهم من بيت أبي سعيد وغيره، فعرضوهن فاختار منهن من أراد، فكان فيمن اختار زينب بنت أبي سعيد امرأة عمر بن زرقان، وقد كان قتل زوجها، وكان له منها ابن، فأمر ذكيرة أبا طاهر بذبحه، فأخذه أبو طاهر خاله فذبحه.

ثم بعد مدة، قال أبو دلف لأم أبي طاهر: إن ذكيرة الأصبهاني قد عزم على قتل ابنك وإخوتك؛ وكان لأبي طاهر خمسة إخوة، وهم ولد أبي سعيد،

---

(١) كذا في المخطوط.

فاتفق قتلهم له نهارًا، فماج القصر لذلك، فقال لهم الحسن ابن سُنبرّ: أغلقوا باب القصر، فأغلق، وأشرف على الناس فقال: مالكم اجتمعتم؟ قالوا: بلغنا أنكم قتلتم الإله، قال: قد فعلنا ذاك، قالوا له: ولما قتلتموه، قال: ما نريد أن نذكر لكم السبب في ذلك فأمسكوا، وقال لهم ابن سنبر: إن شئتم أن تذهبوا فاذهبوا، فما نعرفكم السبب. ثم قال لهم: يا قوم لا تفضحونا وأنفسكم، ولا تشمتوا بنا المسلمين وبكم، وارجعوا عن جميع ما قاله لكم أبو طاهر إلى ما كنتم عليه وكنا من قبل ذلك، من أنّا أصحاب المهدي، والدعاة إلى المهدي، والمؤمنون والشيعة، فإنه كنا نحدّث أن ستكون للمؤمنين زلة هي هذه، فالله الله في أنفسنا وأنفسكم، فما أدخلنا كم في شيء إلا بعد أن دخلنا فيه. قالوا نريد أن نراه إن كان مقتولا، وخافوا أن لا تكون حيلة من جملة حيلهم وكذبهم الذي كان لأبي طاهر، ففتحوا الباب وأدخلوهم، فرأوا ذكيرة مقتولا، وجاءت زينب بنت أبي سعيد امرأة بن زرقان، فشقت جوفه، واستخرجت كبده فأكلتها، وكانت فضيحة عظيمة. فقال ابن سنبر لأبي طاهر: فرق المال في الرؤساء وأرضهم، فإن هذه سقطة عظيمة سقطناها، فوجه أبو طاهر في الليل إلى الرؤساء وتلافاهم، وخضع لهم، ولم تكن عادته.

ثم إنه غزا بعد قتل ذكيرة ونهب، وجاء إلى الكوفة، فصار أصحابه لا يمتثلون أمره كما كان، وقد كانوا لا يخالفونه في شيء البتة، وكان أي شيء نهبوه أو غنموه يسلموه إليه ولا يخونونه في شيء منه، لأنه حجة الله، وأن المال يجبيه للمهديّ، فصار بعد قصة ذكيرة لا يعطونه ما ينهبونه وصاروا يشربون، ويسمعون القيان، ويطلبون المواخير، وإذا جاءهم العرفاء، وقالوا لهم: هاتوا ما غنمتم، لم يعطوهم، وإذا قالوا لهم: السيد يأمركم بكذا، قالوا ناك السيد أمه، وفلي است أم السيد، فرحل بهم راجعًا إلى البحرين، فقال العويمل العقيلي وغيره لبني عمهم: ياويحكم، اعتزلوا هذا الكذاب بن الكذاب فإنه يصبر بكم إلى البحرين ويسترهن عيالا تكم، ويطالبكم بما غنمتم، ويأخذه منكم ويستعبدكم. فبلغه قوله، فأخذه وقيده، ورجع إلى الأحساء، فقتل

من أصحابه وثقاته نحو أربعمائة، وأقام بالأحساء وقال قد نهيت عن الغزو، وأمرت بعمارة الأحساء فأخذ المسلمين الذين أسرهم واستعبدهم بالعمارة. وأقام مدة، ثم غزا وأقام ناحية من الكوفة، ووكل بالعسكر من يراعيه لئلا يدخل إليه غريب، وطمع أن يعود أصحابه كما كانوا، فما فعلوا، ودخل على أهل السواد من الكوفة ومن كان يلتجئ إليه من المتشيعين من الحزن والفضيحة وشماتة الأعداء ما قتلهم حزنًا.

وكان مثل عيسى بن موسى ختن عبدان وأصحابه وأمثاله، يعاتبون أبا طاهر وأصحابه بينهم سرًا، فيقول لهم: ما الحيلة، وما اخترنا هذا لأنفسنا، وقولوا لنا من كان من أهل هذه الدعوة لم تكن له سقطة وفضيحة.

ألم يفتضح المنصور بن حوشب بعدن لاعة، ألم يفتضح الوليّ ابن الفضل بجيشان، ألم يفتضح سعيد بسجلماسة، حتى شيخ المشائخ أبو موسى هرون وهو شيخ الشيعة، وقال لسعيد في وجهه: ويلك، أنت الغاوي لا المهدي، تزني، وتلوط، وتشرب الخمر، وتكذب، وتغدر، وتسفك الدم، ويلك، أي شيء أنت، وابن من أنت، قال: قد قال لكم أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا الكوفي الداعية أني أنا المهدي، فجاءوا بأبي عبد الله، فقالوا له: هذا هو المهدي، فقال: لا، فقال له سعيد: ألم تقل لأهل العسكر بسجلماسة: هذا هو المهدي الذي كنت أدعو إليه، فأقبل أبو عبد الله على أبي موسى والجماعة فقال: يا هؤلاء غلطت كما يغلط الناس، أنا رجل من أهل الكوفة من الشيعة، وكنا نذهب إلى إمامة موسى بن جعفر وولده، فرجع ابن حوشب ورجعنا لما مات الحسن العسكري، ووقع علينا من دعانا إلى إمامه محمد بن اسماعيل بن جعفر، ولقيت الإمام من قبل محمد بن اسماعيل بالكوفة، وودعته وخرجت إلى ابن حوشب باليمن، وبين يدي الإمام بالكوفة غلامان، فقال لي حين ودعته: يا أبا عبد الله، هذان إماماك، فمن داعاك منهما فأجبه، فخرجت إلى اليمن، ومنها إلى مكة، ومنها إليكم إلى الغرب.

وبلغنا أن الإمام قد مات وخلف ولده، وكانت الكتب تأتيني من هذين، وفيها بعض العلامات التي كانت بيني وبين الإمام، فظننته المهديّ وما هو بالمهديّ، ولكنه رجل سوء، كذاب، شرير، عدو الله، وعدوّ رسوله، وعدوّ أهل بيته، وعدو الشيعة، وعدو المهدي. فوافق سعيد أبا عبد الله على غدارته وأكاذيبه وما كان له في كتامة، وتشأتما وانفرد سعيد ومعه الأموال، وأعمل الحيلة، وقتل أبا عبد الله وشيخ والمشائخ.

وقام أبو زكريا محمد بن أحمد بن زكريا أخو أبي عبد الله وكان أجل منه وأخص بسعيد وأعلم بالدعوة، فنادى على سعيد بأنه كذاب عدو لرسول الله ﷺ وأهل بيته، وواقفه وتشاتما، وما زال ينادي عليه برقادة وأرض المغرب إلى أن دس عليه من قتله.

وقام أبو ذاكي تمام بن معارك، وكان أخص الناس بسعيد وأوثقهم عنده ووجهًا في الشيعة، فما زال ينادي: احذروا هذا المشرقي الكذاب فإنه لا دين له إلى أن بذل سعيد الأموال في العبيد والجهال إلى أن قتل أبا ذاكي وأصحابه.

أو ليس حين مات سعيد وقام ابنه قد رجع عنه خاصته، وقالوا هذا أكفر من أبيه. أو ليس قد أظهروا بأرض المغرب شتم نبيّ العرب وأصحابه فقالوا: العنوا الغار ومن حوله، العنوا عائشة وبعلها؛ ولعنوا جميع الأنبياء وأظهروا الباطن كله، وبعثوا الدعاة، فدعوا إلى سعيد أنه إله حق، وأنه خالق ورازق، وأنه هو الذي فتق ورتق وأمات وأحيا. ونكحوا البنات، حتى كان مثل أبي الأسود وأبو طاعة من الدعاة قد نكحوا بناتهم؛ حتى ذهبت الشيعة إلى أبي يزيد مخلد بن كرّاد وهو من الشراة وشكوا إليه ذهاب الإسلام بهؤلاء المشارقة، وقالوا: هذا وإن كان من الشراة فليس ينكر الربوبية ولا يكذب الرسل ولا يعلن الأنبياء ومعه حفظ الأموال، فساروا معه إلى ابن سعيد بعد موت أبيه، فأنفذ إليه ابن سعيد عسكرًا بعد عسكر، فما زال يهزمهم إلى أن

وافى باب المهدية فأغلق بابه دونه، فأخذ الحلقة بيده وهو شيخ كبير لا يمكنه لعجزه وكبره أن يركب فرسًا، فكان يركب حمارًا، فحاصر ابن سعيد في المهدية مع عساكره فمات في حصاره فرقًا منه.

وقام إسماعيل ابنه من بعده وحاصرهم صاحب الحمار حتى أكلوا براذينهم، وحتى ذلوا له وخضعوا، وقد دوخهم خمس سنين، واستولى مع عجزه وضعفه على أكثر ممالكهم، إلى أن تمت حيلته عليه.

وأعان أبو الحسين بن عمار اسماعيل القائم الثالث منهم عليّ أبي يزيد حتى ظهر عليًا، فلما خرج أظهر اسماعيل الرجوع إلى الإسلام. وقتل الدعاة، ونفى بعضهم إلى أرض الأندلس وغيرها. فقال للعامة: من سمعتموه يلعن الأنبياء فاقتلوه وأنا من ورائكم، وأذن للفقهاء والمحدثين، وخضع للعامة، وزعم أن الذي كان من الدعوة ومن الناحية والمنشدين كان بغير علم أبي ولا علم جدي، وخفف الخراج، وأظهر الشغل بالفقه.

فسقطات غيرنا من أهل الدعوة أكثر من سقطاتنا، أم تظنون أنا بالبحرين لا نعرف أخبار اخواننا وأهل دعوتنا بالمغرب واليمن والعراق، فكانوا يحتجون بمثل هذا على من عذلهم من إخوانهم في إظهار الباطن، وكان الدعاة مثل أبي القاسم عيسى بن موسى، وأبي مسلم بن حماد الموصلي، وأبي بكر أخيه، وأبي حاتم أحمد بن حمدان الرازي الكلابي وغيرهم يحدثون أسفًا وحسرة بما أتاه أبو طاهر من كشف الدعوة، حتى سقطت هيبته واستخفت العرب به بعد ذلك التعظيم، وحتى كان أبو طالب بن عيسى بن موسى وأمثاله يقولون إذا ذروا هتيكة أبي طاهر وفضيحة مالك يا أبا طاهر، لعنك الله ويلك، لم سلمت الأمر إلى ذكيرة الأصبهاني. ويلك، إلا مضيت على غرتك وقد ظن الناس أنك المهدي، وفيهم من ظن أنك فوق المهدي، ويلك ، إلى نجارى قدمًا ما يردك أحد. لعنك الله، وصلى الله عليك يا محمد.

لا يلعنون أبا طاهر براءة منه، ولا يصلون على النبى ﷺ موالاة له وتصديقًا بنبوته، ولكن يذهبون إلى أنه وإن كان كذابًا محتالا مثل أبي طاهر والذين بالمغرب وحاشاه ﷺ من قولهم فما افتضح مثل فضائحهم. ولقد رجع أبو الغيث العجلي عنهم وكان نابًا من أنيابهم، ومطاعًا في عشيرته. وكانوا نحو ثلاثين ألفًا، وكتب في ذلك كتابًا بيّن فيه أنه تموّه أمرهم عليه وظنهم شيعة وأصحاب المهدي؛ ورجع غيره من رؤسائهم ممن قد ذكره ابن رزام من المراتب الخمس وفي الكتاب الكبير، وذكرهم غيره.

ولقد بلغ الأمر بأبي طاهر أنه كان بعد ذكيرة بغير على الحاج وعلى بلدان المسلمين، ثم يجهد بالعرب أن يعطوه شيئًا مما يأخذونه كما كانوا يفعلون من قبل، ويقلو هذا مال المهدي، فإن لم تعطونا كله كما كنتم فهاتوا بعضه، فيقولون له: استأمنا إن أعطيناك مفاتحنا وقد عرفناك. فلما رأى استخفافهم به بعد الكرامة قال: لا وجه لما أنا فيه، أقتل المسلمين وأنهبهم ويذهب هؤلاء بالمال. فجاء إلى الكوفة وآمن الناس، ووجه إلى الراضي بعد المقتدر وبعد القاهر، وكان هذا الراضي من الضعف وحَجْر بحكم والأعاجم عليه على حال قبيحة، وقد تفرقت الجنود عنه، وأخذت الأموال منه؛ فوجه إليه يطلب منه مالا يعطيه ليخدمه ويبذرق الحاج، ففعل الراضي ذلك، وأعطاه مالا معلومًا، وقال أبو طاهر هذا أربح لي، آخذ هذا المال وأعطى بعض أصحابي وأعواني وأفوز ببعض. وكان العقلاء يعجبون ويعتبرون، ويقولون عظم أمر أبي طاهر حتى ادّعى قوم أنه إله، وادعى آخرون له أنه نبيّ، وادعى قولم أن المهديّ، وأقل ما ادّعى له أنه ثقة المهدي وسيف المهدي. واستقلوا له ملك الأرض، وما شك الشيعة أنه يملكها، وأظهروا الروايات له بذلك، وأنه مذكور في الملاحم، وفي كتب الحدثان؛ وأنه حجة الله وصاحب حجة الله، والمهديّ والمنتظر الذي يملك الأرض كلها. وطمع في ذلك أشد الطمع، وكان السلطان في زمانه مقصرًا لا يعرف من التدبير قليلاً ولا كثيرًا، وقد قلد الخلافة وله

اثنتا عشر سنة متحليًا بالنساء، كتابه وعماله وخاصته تغلب عليهم التشيع، يظنون أبا طاهر من الشيعة، فكانوا أعوانه على السلطان، فخذله الله حتى صنع مع ذكيرة ما صنع ففضحه لله بلسانه، ثم عاد فقتل ذكيرة ورجع عما كان عليه، ثم لم يزل خذلان الله به حتى جاء إلى الراضي وتلك حاله يطلب بذرقة الحاج منه، وسأله أن يستخدمه في ذلك، وضمن كل ما يجرى على الحاج. وخرج إليه إلى الكوفة ابن مقاتل صاحب ابن رائق ووافه على بذرقة الحاج بعد أن وبخه على ما كان منه، فأنكر أن يكون ما جرى باختياره، وأن البوادي كانت تقتات عليه ولا تطيعه.. وأن السلطان قصر فى أمره وقد كان ينبغي له أن يعرف مكانه، ويعطيه ما يرضي البوادي، ويستخدمه ويجعله أحد صنائعه، فقال الحجاج لا تسير معه ولا تثق به ولا كرامة له، فأقام السلطان أبا عليّ عمر بن يحيى العلوي أميراً عليهم، يسير أبو طاهر مع أصحابه بسيره وينزل بنزوله، ولا يكون له على أحد من الحاجّ أمر ولا نهي. وإذا تصورت حال أبي طاهر وكيف كانت وإلى أي شيء صارت، حتى يرغب إلى الراضي - وهو أول من زالت دولة بنى العباس على يده وأخذت الأموال منه، وأجرى له مقدار الكفاية، وزال أمره عن تدبير الجند وعن الولايات؛ وهو أول من حجر عليه منهم - في أن يستخدمه في بذرقة الحاج بشيء يعطيه، علمت أن ذلك آية من آيات الله العظام، فقد كان أثخن في الإسلام وأخرب منازل الحاج، وقد كاتب في الأمن والعمارة كالأسواق القائمة، ولعل قتلاه أكثر من قتلى بابك وصاحب الزنج، وكانت هيبته قد ملأت القلوب، حتى كتب ملك الروم إلى السلطان كتابًا يظهر له الشماتة بأن أبا طاهر القرمطي قد أبادكم وأفناكم وشغلكم عن غزونا وأراحنا منكم وقصد بيت عبادتكم فقتل زواره ومن يعظمه وأنزل بدينكم كل هوان. وكان العامة ومن ليس هو من الدعوة إذا سألوا أصحاب أبي طاهر عما أتاه في باب ذكيرة لا يجيبون بل يقولون إنما سلم الأمر إليه ليمكر به ولينظر ما عنده، وصبر عليه، وعلى ما أتاه ليعرف آخر أمره، فكان لتسليمه باطن غير ما ظهر للناس. وهذا أعجب ما يكون من فضائح المبطلين وبهتهم، وهذا مالا يعجز عن ادعائه أحد، فإنهم قد افتضحوا وتقطعوا ندمًا،

وانصرفت عنهم عُقيل لهذه الفضائح وهانوا على جندهم بعد الكرامة، وسقطت أقدارهم البتة، ثم يبهتون هذا البهت.

وهذا كقولهم لو قال: إن خادم العباس بن عمرو الغنوي ما وثقنا به ولا سكنا إليه ولا وثق به أبو سعيد ولا ائتمنه ولا سكن إليه وإنما تركناه وقتل أبي سعيد وتلك الجماعة الذين قتلهم في الحمام لننظر ما عنده وليظهر آخر أمره، على علم منّا بما سيأتيه ويفعله. وأن ما أتاه الأصفر من قتل رجالنا ومنعنا من التصرف في البلاد والخروج لأخذ ضريبة الحاج وحصاره إيانا في الأحساء، ليس عن عجز منا ولا لجهل منا بما كان منه قبل أن يكون، وإنما تركناه على علم وقدرة ليظهر كل ما عنده ولكل أمر باطن.

أو كمن قال: إن الأصفر لم يصنع بهم هذا الصنيع عداوة لهم، فكذا ما صنعه ابن أبي الساج، وإنما أراد الأصفر أن يمتحنهم بذلك، ولهذا باطن وهذا خلق لأهل هذه الدعوة حيث كانوا من مشرق الأرض وغربها، فإنهم متى افتضحوا ومتى بان كذبهم فقالوا لهذا باطن.

فقد كان سعيد أنفذ الجيوش في سنة اثنين وثلاثمائة إلى مصر وقال: تفتحونها وأنا في إثركم، وكان خالية ليس فيها إلا لقاسم بن الأخشيد الفرغازني في سبعة آلاف، وعسكر ابن سعيد الذي ورد به إلى مصر في نحو مائتي ألف، فهزمهم القاسم وردّهم، فرجعوا في سنة سبع وثلاثمائة في ثلاثمائة ألف، وقال: تفتحونها، فرجعوا منهزمين. وكان ابن سعيد رئيس الجند، ويوسف بن غروي الكبير المدّبر، وهو يعجب من رجوعهم وقد قال تفتحون. فقال لهذا القول باطن فأخذ يوسف هذا وقتله[1].

وقد كان الرابع منهم لما ملك مصر والشام قال: الآن أملك الدنيا كلها، وكان له برذون أشهب يقال له عين الفضة، فقال: على هذا أدخل قسطنطينة، وقال: أنا لا أعطي أهل الاحساء عن الحاج ضريبة كما كان كافور الحصيّ

---

(١) في المخطوط: أبو يوسف

الأسود قبلي يعطيهم، فإن خالفوني وجّهتُ بكتامة فشدُّوا براذينهم على أبوابهم بالأحساء وساوم صاحبه وصاحب جيشه في ثياب بياض، ثم قال: وهذه تجلب من نيسابور وإلى هناك نصير فنشتريه من معدنه. فجاء ولد أبي سعيد وأخذوا الرايات السود من بغداد وعليها الامام المطيع لله أمير المؤمنين. وكانوا في جيش قليل، وأخذوا الشام منه، وقتلوا ابن فلاح صاحبه، وقالوا له ما تحتاج أن تنفد بكتامة إلى الأحساء فقد جئناك. فراسلهم ودارهم، وقال لهم: لم رضيتم لأنفسكم أنت تسيروا تحت الرايات السود وتقيموا الدعوة لبني العباس، قالوا له: قد كان ينبغي ألا تمخرق علينا ولا تتكلم فينا، ونحن نعرفك ونعرف أباك، فما زال يراسلهم ويتضرع إليهم ويقول: الدعوة واحدة وهذا البيت وبيت أبي سواء، فساروا إليه إلى مصر وضيقوا عليه، فخندق على نفسه، وبذل الأموال، وبذل المال للبوادي فأخذوا سوادهم وانهزموا من باب مصر، وأسر ابن المنجا وجماعة منهم، فأكرمهم وصانهم وخلع عليهم، وردهم إلى الأحساء وأعطاهم أكثر مما كان يعطيهم كافور، وقتل من كان في عسكرهم من السوقة والباعة وهم ألوف كثيرة، وقال لولد أبي سعيد أنا ما منعتكم وإنما منعكم هذا العبد جوهر، وتقرب اليهم، وأذكرهم أن الدعوة واحدة وما ينبغي أن نختلف فيشمت بنا المسلمون، وما زال هو ومن بعده يحمل إليهم المال الكثير والبرّ الكثير إلى أن حاصرهم الأصفر ومنعهم، ووافي ملك الروم لعنه الله ونزل الشام.

واتفق موت البردون عين الفضة، ونما الخبر إلى ابن الزيات وهو بالشام فكتب إليه: قلت إنك تدخل القسطنطينة على عين الفضة وقد مات وبينك وبين القسطنطينة مسيرة ستة أشهر، وملك الروم فقد نزل بالشام وبينك وبينه مسيرة عشرين يومًا، وقد قرب الأمر عليك فالحق. فترك الجواب عن هذا وكتب إلى ابن الزيات: أنت رجل فاضل كامل، صنعتك وأسأت إليك وأنكرت فضلك، وما أدري كيف أعتذر إليك، وأنا من أحوج الناس إليك، وما

هذا سبيله من الملاطفة. وإذا طالبت خاصته والدعاة له بتلك الأقوال وبينت لهم كذبها وخُلقها قالوا: تلك الأقوال لها باطن.

وعند الخامس منهم من أهل خوارزم والموليان وغيرهما زوار كثير قد جاءوا بالأموال والهدايا، وهم محجور عليهم وموكل بهم ومع هذا فقد تبلغهم ما هناك من الفواحش والإباحات. فربما استفهم الواحد بعد الواحد من هؤلاء الزوار فيقال له: لهذا باطن، وربما قيل لبعضهم: إنما يفعل هذا مولاكم عمدًا ليريكم ويمتحن صبركم، فأمسكوا ولا تتكلموا، ثم لا يؤذن بالرجوع لأحل الفطنة منهم.

وقد كان سعيد وهو بالمغرب قد جعل الرصد على من يرد ويصدر بباب البلد فيعرف أخبارهم، فمن كان منهم من الرسل والدعاة الذين يريدهم فلا يدخلهم إلا ليلا ملثمين في هوادج، وإن كانوا جماعة، فرق بينهم، وأنزلهم ووكل بهم ثقاته، وأخرجهم كذلك، لئلا يقفوا على شيء من أمره؛ ويدس إليهم من يحدثهم من أخباره بما يريد، ويبرهم ويصلهم ويخلفهم ويخرجهم في الاستخفاء كما دخلوا، ويردهم إلى النسفى وأبي حاتم الرازي وابن حماد. فتأمل حال هؤلاء وهم في الأطراف، وقد تستروا بدين الإسلام وأقاموا المؤذنين، فكل من يستدعونه في أول أمره يقولون له لسنا كالإمامية أصحاب موسى بن جعفر الذين يقولون: الصلاة إحدى وخمسين ركعة. الذي يجب عليك عافاك الله ثلاث وسبعون ركعة في اليوم والليلة، وتؤدي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت، وتؤدي الأمانة، وتحصن فرجك، وما نحل لك المتعة كما تحله الرافضة، وتجنب الكذب والزنا والربا واللواط، ولا تشرب شيئًا من المنكر، وما لك في شيء من هذا رخصة البتة. وإذا كان عند الداعية أحد من المحرومين وممن لا يعرف حقيقة الدعوة يصلي الداعية بحداه الليل والنهار. ومع هذا فقد عرف أهل العلم حقيقة الدعوة فكيف بأمر النبوة وهو من الأمور المكشوفة. ولو أخذت تحصي فضائح هؤلاء في كل زمان مع هذا التحفظ لطال، وينبغي أن تعني بأمورهم فليس هاهنا من يطعن في النبوات

سواهم كما قد تقدم لك ودعاتهم اليوم مثل جابر المتوفي، و ابن جبلة، وابن الكميث، والحسن بن محمد المدي، يقولون لمن قد بلغوا به، أما ترون أتباع هذا الفاعل الصانع - بعون رسول الله ﷺ - اليوم - أربع مائة سنة قد أقاموا على شريعته ما يفارقونها، ماذا يرون فيها الحمير، وقد كدّهم بالصلاة والصوم والحج والجهاد، أما يفطنون أما يفيقون.

والعجب ممن ذهب عنه ﷺ مع ظهور أعلامه وانكشاف براهينه، ولو كان لهؤلاء فطنه ومعهم تدبّر لكفتهم أنفسهم وأحوالهم في معرفة صدقه، فإنهم مع اعتصامهم به وتسترهم بإقامة شريعته والانتساب إلى أهل بيته، ومع الأيمان والمواثيق، يفتضحون في كل طرفة عين، وهو ﷺ قد جاء ذلك المجيء وأعداؤه منذ أربع مائة سنة يطلبون عثرة له وزلة فلا يجدونها، وهو كما يقال: قد كان ينبغي أن يكون أصحاب الطب من أخشى خلق الله وأعرَفهم به لكثرة ما يرون من الشدائد النازلة بالناس وبأنفسهم ثم قال ما يغني طبهم عن أنفسهم وأعزَّتهم، ولكن قد سبقوا إلى الاعتقادات الباطلة والتقليد للرجال، فتركوا النظر وقلت عبرتهم، فتبلدوا وتحيروا، فتاهت عقولهم، وماتت فطنهم، فنعوذ بالله من طول الغفلة وموت على غزة وقدوم على حسرة.

وبـــاب آخـــر

[عجزهم عن الإتيان بأي شئ من القرآن]

وهو أنه ﷺ قد علم وتيقن حين تحداهم بأن يأتوا بمثل هذا القرآن أو بمثل عشر سور أو بمثل سورة أنهم لا يأتون بذلك، ولو لم يتيقن ذلك لما تحداهم ولا قال، لأن العاقل لا يقدم على مثل هذا وهو لا يأمن أن يأتوا بمثله فيفتضح وتبطل حجته ويستظهر عليه خصمه ويظهر كذبه وينصرف عنه أصحابه وتبطل رئاسته، سيما والعرب أمم كثيرة، والفصاحة مثبوتة فيهم غالبة على رجالهم ونسائهم وعبيدهم وإمائهم، وهو لا يعرفهم بأعيانهم ولا يحيط علمًا بأشخاصهم وبشعرائهم وخطبائهم وبلغائهم وفصحائهم ودعائهم، فكان لا يأمن أن يتبتّل له قوم منهم غضبًا لأديانهم، وعصبية لآبائهم، وأنفة

لأنفسهم، فيأتون بمثل ذلك في الفصاحة والبلاغة، أو بما يقارب ذلك، فيهدمون كل ما بنى، وهو العاقل الحليم الذي لا يدفع عدوه عقله فلم يكن ليخبر أنهم لا يأتون بشيء من ذلك إلا وهو على يقين أنهم لا يأتون بذلك ولا بما يقاربه فما في الدنيا عاقل تأمل أمره ﷺ إلا وأثمر له الفكر والعلم بذلك.

فإن قيل: قد يقول العاقل في صنعة يدعيها، أو شجاعة، أو في شدة وقوة وأشباه ذلك: إن أحدًا لا يساويني في ذلك ولا يدانيني فيه، وإن كان لا يعلم أن الأمر كما ادَّعى ولا يخرجه ذلك من أن يكون عاقلا ... قيل له: لا يسأل عنه وعن أمثاله من تأمل ما قلنا، فإنا لم نقل إنه ليس في الدنيا عاقل ادعى أنه لا يُساوي في منزله إلا وهو على يقين من أن الأمر كذلك، وإنما قلنا: إن هذا الرجل ﷺ قد ادعى أعظم الأمور وأجلها، وهو أن الله اصطفاه على العالمين، وجعله وحده منذ أرسله حجة على كل من أدركه وكل من يأتي بعده إلى يوم القيام، وأن من خالفه فقد حلَّ ماله ودمه وأهله وذريته، وعليه الخزي والغضب من الله في الدنيا والآخرة، وانه قد وجب على كل عاقل طاعته والانقياد إلى أمره إلى غير ذلك مما ادعاه وفرضه مما يطول ذكره، وان حجته في ذلك أن الخلق أجمعين لو اجتمعوا واجتهدوا لن يأتوا بمثل هذا القرآن أو بمثل سورة منه لا يأتون بمثله، وأنهم إن أتوا بذلك فقد بان كذبه وحرمت طاعته ووجبت معصيته وحل دمه ودم كل من صدقه، فبهذه الشريطة قلنا ذلك وادَّعيناه، وبهذا قد علمنا، لا بما ظنه السائل.

وباب آخر

[حفظ الله لرسوله]

من أعلامه ﷺ، وهو أنه لما صاروا أصحابه في المدينة مشي اليهود إلى الأوس والخزرج وقالوا لهم: لقد جلبتم على أنفسكم باتباع هذا الرجل الضلال والبلاء العاجل بمعاداة الأمم، ولو كنتم يهودًا لناظرناكم، وقد كان في الأوس والخزرج من قد تهود. وقالت النصارى لهم مثل ذلك، ورغبوهم في النصرانية، وهددوهم بنصارى العرب وبملوك الروم، وأكثروا في ذلك وهوّلوا، فقال الله

عز وجل: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[1] فكفاهم الله إياهم كما وعد وكما أخبر، وقد كانوا أشد الناس حرصًا على قتله واستئصاله وبواره، يبذلون في ذلك أموالهم ودماءهم. وقد كانت حاله بالمدينة وإن كان قد صار في جماعة وأنصار قريبًا من حاله بمكة فقد كان يجلس وحده ويمشي وحده، ويدعو به الرجل والمرأة لحاجة فيمشي مع من دعاه، وقد يكون في بيته وعند أهله وحده، وإنما يبوته ومسجده من جريد النخل وارتفاعها مقدار قامة.

وكانت سبيله في ذلك سبيل خلفائه وأصحابه في البذل والتطرح، وقد قصد العبد النصراني لقتل عمر فقتله، وقصد ابن ملجم لقتل علي بن أبي طالب فقتله، وقد تحصن عثمان وأخذ حذره وجمع نفسه ومع هذا فقد تسلق عدوّه عليه ودخل من خوخته ونال منه حاجته مع هذه الأنساب وهم الأمراء، فتعلم أن سلامة رسول الله ﷺ من هذه الأشياء، من الآيات العظيمة، سيما وقد قال لعدوه: إن الله سيكفينكم، وفي هذا تهييج لعدوه على نفسه، وبعث على مكروهه.

وقد كان أهل مكة يبعثون اليهود والنصارى ومن بالمدينة على قتل رسول الله ﷺ، ويُحرشون بين الأوس والخزرج، ويبعثونهم على من آمن برسول الله ﷺ وعلى من اتبعه، وقد كان اليهود وأعداء رسول الله ﷺ ممن بالمدينة يردون مكة ويلقون قريشًا فيبعثونهم على مكاره رسول الله ﷺ وقتله.

وقد كان لليهود بالمدينة وبالحجاز وبجزيرة العرب عدد جمّ، وقرى

---

(١) سورة البقرة آية ١٣٥ - ١٣٧.

وحصون، ولهم بأس، ولهم نجدة وخيول وفرسان، وأبطال وفصحاء وشعراء، ولهم ثروة، وفيهم أجواد ويستجار بهم ويجيرون ويمنعون جيرانهم، ويقاومون الملوك ويدفعونهم عن أنفسهم؛ ونصارى العرب أكثر في هذا كله وأقوى وأشد، فاعرف هذا فبك إلى معرفته أمس الحاجة.

وبـاب آخـر
[النصر في بدر]

من آياته ﷺ وهو ما كان ببدر فإنه يوم كانت فيه آيات كثيرة وأظهر الله عز وجل لنبيّه أعلامًا عظيمة، وكان للمشركين من قريش عير قد أقبلت فيها أموال وبزٌّ وأمتعة فاخرة، وخرجت قريش وقد خافت عليها المسلمين في نحو ألف فارس معدين ومستعدين ليحموها، ووعد الله المسلمين إحدى الطائفتين أن يظفرهم بهم ويغنمهم إياهم، وودَّ المسلمون أن تكون هذه الطائفة غير ذات الشوكة لقلة المسلمين وضعفهم وكثرة المشركين وقوتهم، وكان المسلمون في ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا يتعقب العدة منهم البعير الواحد، ولا فرس معهم يومئذ إلا فرس المقداد وفرس الزبير، وقد سبقهم العدو إلى الماء، واحتوى على الشعاب، واستظهروا على المسلمين بالماء والمكان، فوافى المسلمون في ضعفهم وقلتهم، فحصلوا على المضايق والحروق من الأرض، ولا ماء لهم، فأنزل الله عليهم الماء فشربوا وسقوا ركابهم وتطهروا، وتوطت الأرض لهم ما كان منها رملاً حتى ثبتت أقدامهم عليها، وعند الحرب ألقى عليهم النعاس في الوقت الذي لا يكون فيه نعاس ويطير النوم للخوف على النفوس، فطيب قلوبهم وطير خوفهم، وشجع جبنهم، وأرسل إليهم ملائكته فثبتتهم وبشرتهم، وأخذ رسول الله ﷺ كفًا من تراب وفيه حصيات فرمى به في وجوههم وقال: شاهت الوجوه، حم، لا ينصروا، فتق الحصى في عسكر المشركين وبلغ إلى خلق كثير بخلاف ما جرت به العادة. وقد ورد القرآن بذلك وتفصيله ورودًا يشهد عقل كل عاقل ومتأمل ومعتبر ومتفكر أن ذلك قد كان ووقع في قوله في سورة الأنفال إلى قوله ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ * يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى

الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ * وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ * لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ * إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ * وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ * إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ إلى قوله: ﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(١).

فانظر كيف يصف لهم أحوالهم وضعفهم وخوفهم وقلّتهم وما كان قد وعدهم به من الظفر بإحدى الطائفتين قبل اللقاء وما نصرهم به على ذلك التفضيل. ولا يجوز أن يقول لهم: قد كنت وعدتكم وقد كنتم كارهين وخائفين ومستضعفين، فأزلت خوفكم، وطيبت نفوسكم، وأنزلت عليكم الماء، وغشيتكم بالنعاس أمنةً مني، ونصرتكم بالملائكة، وهو يعلم أنهم يعلمون أنه كاذب، وأن ذلك لم يكن؛ وهذا القول يسمعه العدو والوليُّ، وهو يمتنُّ به على الصحابة وأتباعه، ويحتج به على العدو والوليّ، ويصول بذلك ويدل ويستطيل؛ هذا لا يقع من عاقل، ولا يتوهمه عاقل تدبر وفكر، فكيف بمن يدعي النبوة والصدق، ويريد من كل أحد سمع قوله أن يتبعه ويعتقد ذلك منه ويطيعه. وهؤلاء الذين اتبعوه وأطاعوه وبذلوا أموالهم ودماءهم، إنما فعلوا ذلك لما اعتقدوه من نبوته، وعرفوه من صدقه، وتحققوه من قوله. ففي كل واحد من هذه الآيات ما فيه أتم الحجة بانفراده، فكيف بترادفه واتصال بعضه ببعض، ولو افردت لكل آية بابًا وشرحت ما فيها لكان أولى وإن طال، وأنت متى شئت قدرت على ذلك.

---

(١) سورة الأنفال الآيات ٥ - ١٧.

وانظر ما في قوله: ﴿إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ إلى قوله ﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾[1] فتأمل موافقته لهم واحتجاجه عليهم، وليس يدعى أن هذا قوله، بل يقول لهم: هذا قول ربي وربكم، وهو الذي ان وعدكم هذه المواعيد وضمن لكم النصر وقد وفى لكم بجميع ذلك.

وانظر إلى حسن تدبيره سبحانه وتعالى، فإه ضمن لهم إحدى الطائفتين ولم يقل أيهما هي، وودوا هم أن تكون غير ذات الشوكة فإنها في عدة من الرجال قليلة، وأموالها كثيرة؛ وكرهوا ذات الشوكة لقواتهم، وكثرة عددهم؛ وأراد الله أن يحق الحق بكلماته التي وعد نبيّه أن يهزم جموعهم وينصر ضعف المسلمين عليهم. ولو قال لهم: إنكم تلقون ذات الشوكة هالهم ما عاينوا، إذ هم رجّالة وعدتهم قليلة وأولئك خيّالة وعدتهم كثيرة فخافوا أن يبرزوا فيجول عليهم العدوّ جولة يصطليهم فيها فأيدهم بذلك النصر، وسلمهم تلك السلامة فظفروا بعدوهم فقتلوا سبعين وأسروا سبعين وهزموا الباقين.

وتفهم معنى قوله: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ﴾[2] أي بذلك النصر وذلك التأييد وتلك الآيات والمعجزات استوى لكم قتلهم، ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾[2] لأنه ﷺ لما رمى بلغ الله رميته إلى ما لم يكن في وسعه تبليغها وبثها وإيصالها، فما أحد أصابته إلا قتل أو أسر؛ وليس يجوز أن يقول لهم فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ومثل ذلك قد يكون وقد يتفق، وكذا في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ ووليّه وعدوّه يسمع هذا، وهم قد مارسوا الحروب قبله وجربوها وعرفوها وسمعوا بها، ليعلم أن ذلك شيء انتقضت به العادة وكان

---

(١) سورة الأنفال الآيات ٤١ إلى ٤٤.

(٢) سورة الأنفال آية ٧.

فيه آيات ومعجزات. وقد سأل الخصوم فقالوا: إذا كان الملائكة ثلاثة آلاف أو خمسة والمسلمون ثلاثمائة وثلاثة عشر فكيف لم يصطلوا عدوَّهم وإنما هم في نحو ألف، وكيف لم يعنه بالملائكة يوم أحد وقد قتل أصحابه، وهو قد كان يوم أحد إلى الملائكة أحوج.

قيل له: قد علمنا بما قدمنا أن الملائكة قد شهدتهم يوم بدر بدلالة امتنانه على المسلمين بذلك والعدوّ والولي يسمعه، فليس في سؤاله قدح في هذا العلم، فإن بيّنا وجه حضورهم فمن طريق التطوع، وهو زنه ليس في حضور الملائكة عليهم السلام سقوط الفرض عن المسلمين في مجاهدة عدوّهم، ولا أذن الله لهم في محاربة العدو، ولكنهم حضروا ليثبتوا الذين آمنوا وليرغبوا الذين كفروا وليسقتلوا الواحد بعد الواحد تثبيتًا للمؤمنين وإرعابًا للكافرين وإيضاحًا للمعجزات، وكذا قال الله وقد ذكر نزول الملائكة: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾[1] وقال في موضع آخر في هذه القصة: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ﴾[2].

وأما قصة أحد، فليس إذا أنزل الله الملائكة يوم بدر وجب أن ينزلهم يوم أحد، وليس إذا عافى الله نبيه وقتًا وجب أن يعافيه في كل وقت بل قد يمتحنه بالمرض في وقت ويكلفه الصبر، وكذا ينصر وقتًا بالملائكة ويخليه من ذلك وقتًا آخر فتشتد محنته ويلزمه الصبر؛ وإنما يسأل عن هذا من ادعى أن الله ينصر أنبياءه في جميع مواطنهم بالملائكة، وهذا سؤال يذكره ابن الراوندي بعد موافقته أبي عيسى الوراق وابن لاوي اليهودي، وأمثالهم من الملحدة وأعداء رسول الله ﷺ، وهذا غاية كيدهم، وقد بذلوا جهدهم واستفرغوا وسعهم فما فضحوا بذلك إلا أنفسهم، ولو سكتوا لكان أستر لهم، ولو آمنوا لكان خيرًا لهم، لتعلم أن الإسلام نور لا يطفأ، وأن مطاعن الخصوم فيه لا

---

(١) سورة الأنفال آية ١٠

(٢) سورة الأنفال آية ١٢.

تزيد إلا قوة كالذهب الذي لا يكلف وكلما سبكته وعرضته على النار زاد جودة وصفاءً. وقد كان أعداء رسول الله ﷺ في زمانه من قريش، واليهود والنصارى أكبر عقولا وأشد كيدًا وأكثر شغلا بالتتبع على رسول الله ﷺ وطلب عثراته ولهم فضل المشاهدة، فلو وجدوا مطعنًا لسبقوا إليه ولوافقوا عليه، فقد كان ينبغي لهؤلاء المتأخرين من أعدائه أن يعلموا هذا فيمسكوا، ولكن الجهل والغباء قد سد مسامعهم وغطى على أبصارهم، ويأبى الله إلا فضيحتهم وهتكتهم؛ وهم لم يسألوا عن الآيات التي كانت تنذر ولا عن المواعيد التي تقدمت بها قبل كونها مع كثرة ذلك واعتداد الله به، وما سألوا إلا عن الملائكة ليأسهم من تلك وطعنهم في هذه وقد تبينت خيبة أملهم في هذه أيضًا وفي شهود الملائكة مع ما قدمنا من الدلالة.

أخبار من ذلك: أن رجلين من مزينة من الكفار كانا على جبل ينظران على من تكون الهزيمة، فقال الباقي: وكنا نحب أن يكون على قريش لأنهم أكثر أموالاً ومتاعًا فنصيب منه فرابنا سحابة قد أقبلت، وقائل يقول: أقدم حيزوم، فأما ابن عمي فإنه انكشف قناع قلبه فمات، وأما أنا فتماسكت، فأتى النبيّ فأخبره بذلك، فقال رسول الله ﷺ حيزوم اسم فرس الملك[1].

ومن ذلك أن حكيم بن حزام لما أسلم وقد كف بصره وكان يوم بدر مع الكفار قال: لو كان بصري صحيحًا لأريتكم الوادي الذي خرجت علينا منه الملائكة.

ومن ذلك أن أبا تميم الأسلمي لما رأى الحارث بن هشام يصير إلى مكة داخلاً وقد انقطع فرسه فسأله عن الخبر فقال: رأينا رجالاً بيضًا على خيل بلق تطير بين السماء والأرض فانهزمنا.

ومن ذلك أن أبا سفيان بن الحرث بن عبد المطلب لما قدم مكة منهزمًا قال له أبو لهب: إلى أين يا ابن أخي فعندك لعمرى الخبر فقال: يا عم قتل

---

(١) كتب في الهامش: الحيزوم اسم فرس الملك.

الناس، قاله له أكانون أكثر منكم، قال: لا، ولكنا رأينا رجالاً بيضًا على خيل بلق تطير بين السماء والأرض، فلما رأيناهم انهزمنا، قال أبو رافع مولى العباس ابن عبد المطلب وكان مسلمًا: تلك الملائكة فوثب عليه أبو لهب فضربه.

ومن ذلك خبر أبي داود المازني قال: بينا أنا أبتغي خلف رجل من الكفار إذ سقط رأسه بين يدى من غير أن أضربه، وقد كان المسلمون لما رأوا كثرة المشركين وعدتهم وبأسهم وضعف المسلمين وقلتهم قالوا: يا رسول الله قد تخلف عنك خلق من المسلمين بالمدينة لم يخرجوا لأنهم لم يظنوا أنك تلقي عدوًا تقاتلهم وإنما ظنوا أنك تلقى عير قريش، ولسنا نأمن جولة العدوّ، فإن رأيت يا رسول الله أن نبني لك عريشًا تكون فيه، فأجابهم إلى ذلك وقال: اتخذوا لي عريشًا تسعي وصاحبى، وأخذ بيد أبي بكر الصديق فأدخله معه العريش، وجعل رسول الله ﷺ يدعو ربه، وطالت مناجاته ربه: ربّ ماوعدتني، ربّ إن تهلك هذه العصابة لم تعبد في الأرض، فاحتضنه أبو بكر من ورائه وقال: بأبي أنت وأمي مناشدتك ربك، فوالذي بعثك بالحق لينجزنّ الله لك ما وعدك. وجعل رسول الله يخبر أبا بكر بما يأتيه به جبريل والملائكة، ويقول له: أبشر يا أبا بكر أتاك نصر الله وعونه، هذا جبريل معتمرًا بعمامة آخذًا بعنان فرسه يقوده على ثناة النفع، وهذه الملائكة قد سومت.

فأمر الملائكة عليهم السلام، وحضورهم يوم بدر، وقتال من قاتل منهم، من الأمور المشهورة، وقد قدمنا قبل هذه الأخبار دلالة العقل على ذلك، وقوله عز وجل: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً﴾[1] فقلل المشركين في أعين المسلمين لتجرؤوا عليهم ولئلا يهابوهم، وقلل المسلمين في أعين المشركين ثم ملأ قلوبهم رعبًا منهم ليكون ذلك آية للفريقين. وقد كان المشركون من قريش خرجوا من مكة

---

(١) سورة الأنفال آية ٤٤.

على خيولهم مستظهرين ووعيدهم أن يغلبون كل من يلقونه ولا غالب لهم من الناس، فلما نجت عيرهم ذات الأموال، قال عتبة بن أبي ربيعة: ننصرف فقد نجت عيرنا من محمد وأصحابه، فقال أبو جهل: لا ننصرف ونقيم نجزر الجزور ونأكل ونطعم الناس ونأخذ محمدًا وأصحابه فإنهم في ضعف وقلة، فما التقى الجمعان ورأوا قلة المسلمين وضعفهم رهبوهم وزال ما كانوا يظنون.

وقد ذكر الله للمسلمين أمرهم فقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ * وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾[1] إلى آخر القصة ولعظم الآيات ببدر ما أذكر الله بها في كل موضع، فقال عز وجل في سورة آل عمران: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[2] إلى قوله: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾[3] معطوف على قوله: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾(٤) أي ليس لك ولا لغيرك شيئ من هذا النصر، وإنما هو من الله وتحده في إنزال الملائكة وفيما ألقى من الرعب وفيما غشى من النعاس وفيما بلّغ من الرمي وغير ذلك. وكان المشركون مغيظين وحنقين ومحفظين يتمنون أن يبرز إليهم رسول الله ﷺ، وأصحابه لا يشكون في إنهم إذا وقعت عيونهم عليهم اطلموهم واستأصلوا الإسلام وشفوا غيظهم من رسول الله ﷺ فجاءهم مالم يحتسبوا.

---

(١) سورة الأنفال آية ٤٧ - ٤٨.

(٢) سورة آل عمران آية ١٢١ - ١٢٢.

(٣) سورة آل عمران آية ١٢٧.

(٤) سورة آل عمران آية ١٢٦.

وبـــاب آخـــر

من آياته وهو أنه ﷺ لما نزل بالمدينة ودعا إلى ربه وبها وحولها من اليهود وخلق كثير، فدعاهم ووعظهم وبين لهم، فرجع الرؤساء والأتباع وتواصوا بالانحراف عنه وبالصدّ وبالقصد له، وكان عددهم كثيرًا وشوكتهم شديدة، فمشوا في الأوس والخزرج في الصدّ عنه، ومالوا إلى عبد الله بن أبي سلول، وكان الأوس والخزرج على أن يملكوه عليهم إلى أن جاء الإسلام فانتقض ما عزموا عليه. وكانت اليهود تدّعي أنها على بصيرة من أمرها، وأن الجنة لها، وأن نعيم الجنة خالص لها، فأخبر الله نبيه أنهم ليسوا من أمرهم على يقين كما يدعون، وأن رهبتهم لكم شديدة، وأنك إن دعوتهم إلى تمني الموت لا يتمنونه، فقال: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(١). ثم قال: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ(٢) أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ﴾(٣) إلى آخر القصة. ثم أعاد هذا التقريع والتوبيخ في سورة أخرى وفي زمان آخر فقال: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(٤). ثم قال: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾(٥). فما تمنوه أبدًا مع هذا الاقتضاء والمطالبة التي تغيظ وتغضب، ومع شدة عداوتهم لرسول الله ﷺ وحرصهم على تكذيبه وفضيحته وزلة تكون منه، وقد بذلوا في ذلك دماءهم وأموالهم وأولادهم وحاربوه وأعانوا عدوه عليه، وتكلفوا كل شدة وكل مشقة في ذلك وما أقدموا على تمني الموت مع سهولته وقربه، وهو أن يقولوا: ليتنا متنا. وهذه

---

(١) سورة البقرة آية ٩٤.

(٢) في المخطوط: فلن يتمنونه.

(٣) سورة البقرة آية ٩٥ - ٩٦.

(٤) سورة الجمعة آية ٦.

(٥) سورة الجمعة آية ٧.

الآيات العظام والأعلام الكبار الهائلة الواضحة المكشوفة الباهرة القاهرة التي ما فكر فيها عاقل إلا ملأت قلبه علمًا بنبوته ﷺ وصدقه، وبهرت عقله، فإنك ما تدري أمن إقدامه ﷺ على الإخبار عنهم بأنهم لا يتمنون ذلك مع خفته وسهولته ومع علمه بشدة حرصهم على تكذيبه وفضيحته تعجب، أم من إحجامهم عن ذلك مع شدة حاجتهم إليه. ولم يقل هذا من عندى ولا من مولى بل هذا من قول الله ربى وربكم وإلهى وإلهكم والعالم بسركم وجهركم، فجعله كتابًا يقرأ وقرآنًا يتلى، ليكون أشد وأغيظ وأبلغ في الحجة وأظهر في التنبيه، ولتعلم أنه ما قال هذا لهم إلا وهو عالم أنهم لزا يتمنونه. وهو أعجب من قوله للعرب أنكم لا تأتون بمثل هذا القرآن، وهذا مقام لا يقومه مثله مع عقله وعظم دعاويه إلا مع اليقين، لتعلم ثقته بربه جل وعز وسكونه إلى ما يوحى إليه.

وقد تحيرت الملحدة وأعداء رسول الله ﷺ، وتاهت عقولهم عند هذه الآيات، فهم يلعنون العرب لِمَ لم يأتوا بمثل هذا القرآن، وكون اليهود لِمَ لم يتمنوا الموت فيكذبونه فيستريحون ونستريح. وهذا يقوله مثل الحداد وصاحبه أبي عيسى قبحهم الله.

فمرة يقولون: كانوا جهالا بلهًا فقيل لهم ما قد تقدم ذكره من أن من رمى أعداء رسول الله ﷺ من قريش واليهود والنصارى بالجهل والغباء فهو كمن رماه ﷺ بذلك. ومرة يقولون: قد كانوا عقلاء وفطناء ولم يكونوا أهل جدول ونظر فيعرفوا مثل هذا، قلنا: لو كانوا مثلكم في النظر والجدل لعميت قلوبهم كما عميت قلوبكم. وبعد فما حاجاتهم إلى جدلكم ونظركم ليعرفوا ما دعاهم إليه ﷺ وهم بهذا أعلم الناس، وهو شيء يعرفه الرجال والنساء والصبيان من كل أمة، فإن من استعلى على خصمه بأنه لا يأتي بمثل ما أتى من كتابة أو سباحة أو فصاح أو خطابه أو شعر فإنه قد عرف الوجه في ذلك، فإن الصبى يقول لقريبه: أنت لا تحسن تكتب كما أكتب ولا تحسب كما أحسب ولا تطفر هذا الجدول كما أظفر، فإن خصمه يدرى ما أراده منه وبأي شيء

قد طالبه وما الوجه في مغالبته وإكذابه، وكذا تمني الموت قد عرفته اليهود وعرفوا كل أحد منهم ما أراده ﷺ.

فذكر ابن الراوندى أن الوراق كان يقول: إنما لم يتمنوا الموت لأن اليهود والنصارى كانوا يؤمنون بموسى وغيره ممن كان يدعي النبوة، وقد أخبر هؤلاء في كتبهم بنبوة محمد ﷺ فلم يقدموا على التمني لهذا. فقيل له: فهذا يدل على نبوة أولئك ونبوة محمد جميعًا فقد لزمكم القول بكتبهم أجمعين، وأنتم تنكرون ذلك كله. قال: إنما إخبار هؤلاء عن مجيء محمد ﷺ كما يخبر المنجم عن ما يكون، فيقولون ذلك. قيل له: ومتى كان مثل هذا في أخبار المنجمين أن يخبروا عن مثل مجئ محمد ﷺ، وفي أي زمان يجيء، وبأي شيء يجيئ، ومن أي بلد يجيء، ومن أي جبل، هو وابن من هو، على التفصيل الذي جاء به، مثل هذا لا يكون في أخبار حذاق المنجمين ولا ما يقاربه ولا ما يدانيه، وإنما يتفق لهم الإصابة في شيء مجمل قليل يسير بعد أن يكذبوا ويخطئوا[1] في ألف شيء، فيتفق ما يتفق لهم من ذلك بطريق التجارب والزجر، كما يتفق للصبيان من الإصابة في إخراج الزوج والفرد وفي اللعب بالخاتم، بل ما يتفق للصبيان في الإصابة أكثر وأسرع وأحسن وأبدع، وكذا ما يتفق للقوابل في أن الحمل ذكرًا أو أنثى، وكذا ما يتفق لمن يزجر الطير ويضرب بالحصا، وكذا ما يتفق للمتفائلين بالثعلب والمتطيرين بالبوم ولمن يزجر الطير، فكذب المنجمين وخطئهم أكثر من كل كبير، وهو شيء لا يستنكر، وهم يعترفون بهذا فيقولون: لا تعجبوا من خطئنا ولكن اعجبوا من صوابنا، وإنما صوابهم كمجنون نطق بحكمة، أو صبى أتى بنادرة، فإن الناس يحفظون ذلك ويعجبون به لأنه أتى من غير معونة، ولا يحفظون ما يكون من المجانين والصبيان من الجهل والكذب، فكذا ما يكون من المنجم، يخطئ في ألف شيء ويكذب في ألف شيء يحفظ عليه لأن ذلك غير منكر منه، فإذا اتفق له الصواب في شيء واحد تعجبوا وحفظ لقلته من مثله ولأنه أتى من غير معدنه. وعلى أن الناس يكذبون

---

(١) في المخطوط «يكذبون ويخطئون».

المنجمين ويدَّعون لهم ما ليس لهم ولا في صنعتهم، ويضايقون الأنبياء ويتعنتوهم، وقد تقدم قبل هذا شيء على المنجمين فارجع إليه.

ثم قال هؤلاء الزنادقة: إنما لم يتمنوا الموت لأنهم لو تمنوه بألسنتهم لقال إنما عنيت أمنية القلوب، فإن قالوا له: قد تمنينا بقلوبنا، قال لهم: قد أخبرني جبريل أنكم لم تفعلوا ذلك.

قيل لهم: قد حصلوا لنا غير متمنين بألسنتهم، وانتقضت العادة وقامت الحجة وظهرت البينة، وحصلتم تعللون ما لم يكن وما لم يقع، وقد كنتم نسبتم اليهود في تركهم التمني إلى البله، والآن فقد نسبتموهم إلى التميز والتحصيل وإلى غاية الذكاء والفطنة، ومن هذه مرتبته كانوا يقولون له: أنت قلت لنا لن نتمنى ذلك أبدًا وهاقد تمنيناه وهذا إكذاب لخبرك ظاهر بين، فرجوعك إلى ما في القلوب هو الانقطاع على أنك قد نفيت التمني منا نفيًا عامًا لما كان منه باللسان وما كان منه بالقلب، فإذا تمنياه باللسان فقد أكذبناك وقد أفضحناك وقامت حجتنا عليك، وقولك بعد هذا أن جبريل أخبرك أنا ما تمنيناه بقلوبنا فدح منك لأنا نحن نقول لك: إن جبريل ما أتاك ولا يأتيك فكيف يكون دعواك حجة علينا. فتعلم بهذا بطلان كيد الخصوم في توكلهم لليهود بعد أربع مائة سنة، وبعد كيف لم يقولوا له: أي الأمنيتين أخبرت إنا لا نفعلها ليبينوا للناس أنه لا حجة عليهم فيما أخبر به عنهم في أنهم لا يتمنون الموت مع حرصهم على تكذيبه وإبطال حجته.

وباب آخر

من آياته ﷺ، أنه مضى ومعه أبو بكر وعمر إلى اليهود في بعض الشأن، فلما جلسوا أرسل اليهود من يلقي عليهم صخرة لتقتلهم فلما صعد رسول اليهود لذلك أنذره الله عز وجل فنهض من ساعته وقال لأبي بكر وعمر: قوما فإن هؤلاء قد أرسلوا من يلقي علينا ما يقتلنا، فخجل اليهود لذلك.

وفي ذلك يقول الله ممتنًا عليهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[1] وهي قصة معروفة، فلهذا جاز الامتنان بها، ولا يجوز أن يمتن ويقول مثل هذا إلا لما هو مشهور معروف عندهم سمعه الوليّ والعدو.

وبـــاب آخـــر

من آياته ﷺ، وهو أن قومًا من المنافقين وممن في قلوبهم مرض وضعف يقين وقلة بصيرة كانوا يمالئون اليهود ويتوددون إليهم، فيقال لهم: لا تفعلوا هذا، فيقولون: الصواب لنا ولكل عاقل أن يفعل ذلك، فإنا لا نأمن أن يكون لليهود دولة فيصيبنا منهم دائرة، وهم كثرة ولهم نجدة وبأس وشدة، فأنزل الله:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[2] أي من تولاهم فإنه منهم في الكفر لا من المؤمنين، إن الله لا يهدي القوم الظالمين إي لا ينجنهم من العذاب ولا يوصلهم إلى الثواب. ثم قال على نسق الكلام ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾[3] ثم قال:﴿فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾[4] والفتح هو نصر رسول الله ﷺ عليهم وغلبته لهم، فوعده بذلك ثم أنجز له ووفى له، وعسى من الله وأحبه. فواقع رسول الله ﷺ اليهود وقائع كثيرة فنصره الله عليهم، وندم أولئك المنافقون في إسراعهم فيهم كما قال وكما أخبرنا. وقال المؤمنين حين وأوا غمَّ المنافقين بما نزل باليهود وبما

---

(١) سورة المائدة آية ١١.

(٢) سورة المائدة آية ٥١.

(٣)، (٤) سورة المائدة آية ٥٢.

آتاه الله من نصر نبيه ﷺ﴿أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾(١).

وفي هذا آيات عظيمة وأخبار بغيوب كثيرة أخبر بها قبل أن تكون على وجه يغيظ ويغضب ويبعث العدو على استفراغ وسعه وبذل مجهوده في تكذيبه وفي إعمال حلية في أن لا يتن نا قال وما أخبر، خلافًا(٢) لتدبير عقلاء البشر، فإنهم لا يظهرون لعدوهم وجوه مكايدهم لئلا يسبقوهم إليها، ولئلا يتحرروا منها، لتعلم أن هذا تدبير الله الغالب لكل شيء، الذي لا يغلبه شيء، وأن هذا القرآن كلامه وقوله لا كلام أحد من البشر. وكان ميل أولئك إلى اليهود فأنزل الله هذا في اليهود وفي النصارى، ونصر المسلمين عليهم أجمعين، وكانت وقائع المسلمين مع النصارى أكثرهم، وكان بأس النصارى أشد، وعددهم أكثر، ومدة محاربتهم أطول، فكانت العقبى للمسلمين.

وباب آخر

من آياته ﷺ ودلائل نبوته، وهو قوله عز وجل:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾(٣).

فأخبرهم أن من ارتد منهم عن دينه أتى الله بمن يغلبه ويقهره، فلما قبض رسول الله ﷺ ارتدَّت القبائل الكبيرة من العرب عامة وخاصة على وجوه من الردة كما قد تقدم شرح ذلك، فشمر أبو بكر الصديق لحربهم، وأرسل المهاجرين والأنصار على قتالهم، وقاموا على ساق، قهروهم وأذلوهم وغلبوهم وظهرت كلمة الإسلام فكان العز للمسلمين، وهذا من الآيات العظام،

---

(١) سورة المائدة آية ٥٣.

(٢) في المخطوط: خلاف.

(٣) سورة المائدة آية ٥٤.

فانظر كيف قال عز وجل لهم بالمواجهة: ﴿مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ﴾ ولم يقل: من يرتد عن دينه، فكانت عدة تحتمل التسويف بل قال: ﴿مِنكُمْ﴾.

وفي هذا غيوب كثيرة، فإن القبائل التي ارتدت تلك الأنواع من الردة كانت كثيرة ولها بأس وشدة كما قد تقدم ذكر ذلك، وفي هذا أيضًا تأييد لإمامة أبي بكر الصديق، وأنها حق وهدى وصواب ورشاد ودين لله، وقد وصفه الله ومن معه بأنهم يحبون الله وأن الله يحبهم، وأنهم يخضعون ويذلون للمؤمنين وأنهم يستعلون ويشتدون على الكافرين، وأنهم يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون أحدًا ولا يراقبون أحدًا ولا يهابون في الله مخلوقًا وأن هذا فضل من الله ساقه إليهم وخصهم به، وهذه صفات أعلى المؤمنين درجة عند الله، فلو لم يقف من غلط من أتهمهم ورماهم بالريب إلا من هذا الوجه لكفى وأغنى وزاد على الكفاية[1]. ولو كان أبو بكر رضي الله عنه وأصحابه ارتدّوا وكفروا كما زعم هؤلاء وادعوا لأتى الله بمن يقهرهم ويغلبهم، وإلا كان خبر الله قد كذب وأخلف هؤلاء وادعوا لأتى الله بمن يقهرهم ويغلبهم، وإلا كان خبر الله قد كذب وأخلف وحاشا لأخبار الله أن تكون كذلك. عند هؤلاء الزنادقة أن هؤلاء الصحابة قد ارتدوا، وأنهم أعداء الله وأعداء رسوله وأن أمير المؤمنين ونفرًا كانوا معه على الإسلام مغلوبين مقهورين مقصودين بالإذلال والمكروه، وأن أبا بكر وعمر وعثمان والمهاجرين والأنصار كانوا يعزون المشركين وأعداء الدين والمرتدين والمبدلين والمغيرين ويذلون المؤمنين، وهذا ضد التنزيل وتكذيب لقول الله فيهم كما قد شرحه الله وبينه في الآية وأظهره من ضمائر هؤلاء ونياتهم. وعلى ما يقوله الخصم كان ينبغي أن يكون التنزيل: يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يبغضهم ويبغضونه يجاهدون في سبيل الشيطان فهذه صفاتهم عن هؤلاء الخصوم، نعوذ بالله من العمى.

والذي عند العلماء، أن علياً رضي الله عنه كان في أيام هؤلاء أعز المؤمنين

---

(١) كتب في الهامش بالمخطوط «تشنيع على الروافض».

وأجلهم وأعلاهم، نافذ الأمر مسموع الغلب، مثلهم في سلطانه؛ وبه قام سلطان أبي بكر وبأمثاله من المؤمنين، وقد تولى لأبي بكر أتعاب المدينة، وتولى له أموال رسول الله ﷺ، وسار معه إل الربذة وإلى ذي القصة، وغزا معه، وأشار عليه بتلك الآراء، وردّه إلى المدينة وأطاعه حياته وبعد موته، ونفذ وصيته في عمر. وكان رضي الله عنه يضرب المثل لأصحابه، وأنه كان في سلطان أبي بكر وعمر أنفذ قولا، وأن أولئك كانوا أعرف بحقي منكم، وأني لو كنت الخليفة في زمانهم لكانت طاعتهم إلى أحسن، وكان يقول لعدوه مثل ذلك، ولقد كتب إلى معاوية يتمنى أولئك الذين مضوا من المهاجرين والأنصار فقال:[1].

لو أن عندي يا ابن حرب جعفرا أو حمزة الليث الهمام الأزهرا
أو أن لي صدّيقها أو عمرا أو من أولاك السابقين معشرا
رأت قريش نجم ليلي ظهرا

والخصم في زمانك هذا يقول: ما أسلموا قط ولا لهم إسلام، وأنهم مازالوا أعداء المسلمين، والذي يعرف أهل العلم والتحصيل أنهم كانوا خاصة رسول الله ﷺ وبطانته، وأمناءه وثقاته على نفسه وأهله ودينه، وأنه كان يحبهم ويودهم ويجلهم ويعزهم ويواليهم. وأنه قد فرض محبتهم وموالاتهم وأوجبها على الخلق أجمعين إلى يوم القيامة. والعلم بهذا قبل العلم بنبوته، وهو كالعلم بأن عقبة بن أبي معيط، والعاص بن وائل، والوليد بن المغيرة، والنضر ابن الحارث بن كلدة، وأبي بن خلف، وأمية بن خلف، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأمثالهم، كانوا أعداء رسول الله ﷺ، وأنه قد فرض بغضهم والبراءة منهم إلى يوم القيامة. فما يحتاج في هذا إلى تلاوة آية ولا إلى رواية خبر، وإن كان القرآن مملوءًا بذلك، والحديث مستفيضًا به. فإن فعلت ذلك فمن طريق الزيادة في الحجة والمظاهرة بالبينة. والحكاية تلك الألفاظ عمل

---

(١) كتب في الهامش: «من شعر علي بن أبي طالب رضي الله عنه».

الناس الكتب في تفصيل القرآن وإن كانوا يعلمون أن رسول الله ﷺ كان يفضله ويجله، وكما علموا الكتب في تفصيل شهر رمضان وإن كانوا يعلمون أن رسول الله ﷺ كان يفضله، وكما علموا الكتب في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفي الجهاد في سبيل الله، وكما عملوا الكتب على المبتدعين من أهل القبلة بأن القديم الأزلي هو الله وحده، وأنه لم يزل موجودًا حيًا عالمًا قادرًا غنيًا ولا يزال كذلك، وأن جميع ما خلقه وفعله وقضاه وقدره وشاءه وأراده وصنعه ودبره وريه وأحبه وأمر به ودعا إليه فكله حق وصواب وعدل وحسن من جميع وجوهه، أين كان وفيمن كان، وأنه يجب على العباد قبوله والصبر عليه والرضى به والتسليم له سواء كان شدة أم رخاء، وأن الكفر بالله وشتم أنبياء الله وتكذيب رسل الله وجميع المعاصي قبيحة، قتلوا في ذلك آيات القرآن وذكروا ألفاظ النبي ﷺ لما ذكرنا، فاعرف هذا، فالعلم بأن رسول الله ﷺ مدح أبا بكر وعمر وتلك الجماعة من السابقين أقوى من العلم بأنه مدح أحداً وأثنى عليه، أو أنكر أن يكون أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وتلك الجماعة مدحوا رسول الله ﷺ وأعظموه أوصلوا خلفه، إنما ذكرنا هذا للحاجة اليه ولأن الناس قد أكثر وافيه في هذا الزمان فما يستغلون الآية.

وباب آخر

من آياته ﷺ، وهو أن قريشًا والعرب تجمعوا وأعدوا الخيل والرجال والسلاح وقالوا: نسير إلى محمد فنقتله ونقتل أصحابه ونأخذ بثأرنا يوم بدر. فساروا في ثلاثة آلاف، وقال رسول الله ﷺ ندعهم حتى يردوا المدينة؛ فقال قوم من الأنصار قد أصابوا زروعنا فنخرج إليهم فنلقاهم وراء المدينة، فصار رسول الله ﷺ إلى رأيهم وسار. ثم فكروا وقالوا: نأخذ بما أشار به رسول الله ﷺ ونقاتلهم في المدينة، فقال رسول الله ﷺ: ما كان لي أن ألبس لا متي فأرجع حتى ألقى العدو. فخرج في سبعمائة وفيهم عبد الله بن أبي سلول وأمثاله ممن في قلبه مرض، فقال رسول الله ﷺ: ستكون فيكم مصيبة، وذاك أن النبي ﷺ رأى في المنام أن بقرًا تنحر فتأوله قتلا في أصحابه، ورأى أن

سيفه ذا الفقار قد انفصم فكان قتل عمه حمزة رضي الله عنه، ورأى أن كبشًا أعين قتل فتأوله كبش الكتيبة فكان عثمان بن أبي طلحة صاحب لواء المشركين. فلما صاروا بأحد التقوا مع المشركين عبّأ رسول الله ﷺ أصحابه قال لهم: إنكم ستهزمونهم، وأقام الرماة من أصحابه في موضع خاف أن يدخل المشركون منه فيصيروا خلف العسكر، وأمرَّ عليهم عبد الله بن جبير، وقال لهم: إن رأيتمونا قد هزمناهم حتى بلغنا بهم بموضع بعيد فلا تبرحوا أنتم، فانهزم المشركون منه فيصيروا خلف العسكر، وأمرَّ عليهم عبد الله بن جبير، وقال لهم: إن رأيتمونا قد هزمناهم حتى بلغنا بهم بموضع بعيد فلا تبرحوا أنتم، فانهزم المشركون كما قال رسول ﷺ ووضع المسلمون فيهم السيف يقتلونهم، ونظر الرماة إلى الهزيمة فتركوا مراكزهم واتبوا العدو واشتغلوا بالغنائم وثبت أميرهم مع طائفة وقال: والله لا أعصى رسول الله ﷺ، فلما زال الرماة عن مكانهم دخل المشركون وصاروا من ورائهم ونادى مناديهم بصوت عال: قتل محمد وقتل ابن أبي قحافة وقتل ابن الخطاب. وانصرف عبد الله بن أبي سلول بمن معه، وانهزم المسلمون، وبقي رسول الله ﷺ مع نفر يسير، فما برح وما برحوا مع قلتهم وكثرة المشركين، منهم أبو بكر وعمر وعلى وطلحة وأبو عبيدة وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص ونفر من الأنصار؛ وأقبل أبو سفيان بأصحابه نحو الجبل الذي فيه رسول الله ﷺ والنفر الذين معه فصرفهم الله فلم يقدموا عليهم، فنادى أين ابن أبي كبشة، أين ابن أبي قحافة، أين ابن الخطاب، فما أجابه أحد فقال: قتل هؤلاء، فقال عمر: يا رسول الله ألا أجيبه، فقال: أجبه، فقال أبو سفيان: أعل هُبَل، فقال عمر: الله أعلى وأجل، قال أبو سفيان: لنا العزّى ولا عزّى لكم، فقال عمر: الله مولانا ولا مولى لكم، قال أبو سفيان: الأيام دول، والحرب سجال، وأحد ببدر، وحنظلة بحنظلة، يعني ابنه حنظلة، فقال له عمر: ولا سواء، قتلانا في الجنة يرزقون وقتلاكم في النار يعذبون، فقال أبو سفيان: يا ابن الخطاب أسألك عن شيء فأخبرني، فقال: قل، فقال: أما أنت فحيّ، سألتك بالله أمحمد حيّ وابن أبي قحافة حيّ، قال: نعم، ورسول الله يسمع كلامك ولك

منه ما تكره، فقال أنت أصدق، فإن ابن قمئة أخبرني أنه قتل. فقال النبى ﷺ اللهم أقمه في الدنيا قبل الآخرة، فاعتقل عنزًا ليحلبها فنطحته فمات.

وفي هذه الوقعة يقول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ﴾ أى تقتلونهم ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾[1] إلى آخر القصة.

فتعلم أنه لا يسوغ ولا يجوز أن يقول رئيس قوم لهم: قد كنت وعدتكم أن تقتلوهم وقد صدقتكم فيما وعدتكم وأريتكم ما تحبون ثم عصيتم أمري وخالفتم وصيتي وهو يعلم أنهم يعلمون أنه قد كذب في جميع ذلك، فكيف بمن يدَّعي النبوة والصدق في جميع ما يقوله ويخبر به.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ﴾ إلى قوله: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ يعنى أولئك الذين أخلوا المراكز[2] واشتغلوا بالغنيمة ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ * إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ﴾[3].

وهذه أيضًا من الآيات بأحد، فإن النعاس غشيهم كما غشيهم ببدر، في الموضع الذي يطير فيه النعاس؛ والذي يدلّك على كونه امتنان الله عليهم به ولا يجوز أن يمتن عليهم بذلك والعدو والوليّ يسمع هذا الامتنان، وهو أمر لا أصل له وهو يعلم أنهم يعلمون أنه قد كذبهم في ذلك. إلى قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ

---

(١) سورة آل عمران آية ١٥٢.

(٢) في المخطوط : أخلوا بالمراكز.

(٣) سورة آل عمران آية ١٥٢ - ١٥٤.

عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾[١]، وقال لنبيه ﷺ: فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾[٢] فأمره بالاستغفار لهم وأن يعود لهم إلى حالهم في مشاورتهم، فإن المشورة فيما لم ينزل به قرآن مستحبة حسنة. والذين أشاروا من الأنصار على رسول الله ﷺ بأن تكون الحرب خارج المدينة كان لهم أن يشيروا بذلك، وكان لرسول الله ﷺ أن يأخذ برأيهم؛ ولقد اجتهد أعداء عثمان في أن يجدوا له عيبًا فما قدروا عليه مع طول المخاطبة، فقال له قائل منهم: أنت ممن تولى يوم أحد فقال له عثمان: فلم تعيرني بذنب قد غفره الله، أما سمعت قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾[٣] إلى آخر الآية.

وفكر في معنى قوله عز وجل: ﴿أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٤] أي بذنبكم وتقصيركم وترككم الموضع الذي قال لكم نبيكم ﷺ سنهزمهم فلا تتركوا مركزكم ولا تمسوا غنائمهم حتى تفرغوا. وقد كانوا يوم بدر قتلوا سبعين وأسروا سبعين، فلهذا قال لهم: ﴿قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾ لأن القتلى من المسلمين كانوا يوم أحد سبعين فلهذا قال لهم: ﴿قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾ لأن القتلى من المسلمين كما ذكرنا. فتأمل ما تقرأ وأطل الفكر فيه نقف على المراد به، فإ الذكر للقصة بأحد من قوله: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[٥] إلى قوله: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾[٦].

---

(١) سورة آل عمران آية ١٥٥.
(٢) سورة آل عمران آية ١٥٩.
(٣) سورة آل عمران آية ١٥٥.
(٤) سورة آل عمران آية ١٦٥.
(٥) سورة آل عمران آية ١٢٣.
(٦) سورة آل عمران آية ١٧٣.

فتأمل طول هذه المراجع والمواقفة للمؤمنين على الوفاء بما ضمنه لهم، وعلى الصدق فيما أخبرهم وفيما كان من تقصيرهم، فكم فيه من آيات ودلالات. وانظر إلى هذا الادلال بالحق والاستطالة على العدّو والولي بالحجة حتى ما يستطيع العدو المكاشف أن يدفع شيئًا من ذلك.

وانظر إلى الموافقة والمناظرة التى كانت بين عمر وبين أبي سفيان، هل قدر أبو سفيان وأصحابه وهم يناظرون المسلمين من عسكرهم أن يقولوا: إن محمدًا كذبنا في كذبنا في كذا وأخلف في كذا وكيف تطيعونه وتفارقون أديانكم وبلدانكم وتقتلون أنفسكم لرجل هذه سبيله وما أشبه ذلك، وهذا موضع حاجتهم إلى ما هذه سبيله.

وانظر إلى أهل الردة على طبقاتهم، فقد كانوا أشد الناس عداوة لأبي بكر وقد نال منهم كل منال وقتلهم كل قتلة، فما استطاع أحد منهم أن يقول له: وأنت فقد بدلت دين محمد ونقضت عهوده فكيف أنكرت علينا ما صنعنا، ولِمَ تقتلنا لأنا منعنا الزكاة، وهذا موضع حاجتهم إليه وحجتهم عليه، ولتعلم أنه لم يكن فيه مغمز كما لم يكن في رسول الله ﷺ.

ولما رجع المشركون من أحد وصاروا بالروحاء[1]، أقبل بعضهم على بعض يتلاومون، وأنهم صاروا في عسكر عظيم وهم لا يشكون في أنهم يقتلون رسول الله ﷺ ويستأصلون الإسلام، فخاب أملهم واختلف أقوالهم وقالوا: لا محمدًا قتلتم ولا كواعب أردفتم فبئس ما صنعتم.

وقد كان أبو سفيان نادى أصحاب رسول الله ﷺ قبل انصرافه من أحد: ما بيننا وبينكم موسم بدر الصغرى نلتقي بها، فقال النبى ﷺ لمن كان يجيبه من الصحابة: قل نعم إن شاء الله، فما حضر الوقت تعذر على أبي سفيان الخروج للوعد أو كرهه، فأتى نعيم بن مسعود فقال له: إني واعدت محمدًا وأصحابه ولا أخرج فيزيدهم ذلك جرأة، ولأن يكون الخلف من قبلهم

---

(١) الروحاء: اسم مكان.

أحبّ إليَّ، فلك عشرة من الإبل إن حسبتهم عني. فقدم نعيم على أصحاب رسول الله ﷺ وهم مجهزون فجعل يثبطهم ويخوفهم ويذكر أن أبا سفيان قد جمع لهم الجمع الكبير، وأنهم إن خرجوا لم يفلت منهم أحد. وجعل يريهم النصح لهم والإشفاق عليهم، فما قبلوا وبادروا وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل. وخرجوا وتخلف أبو سفيان عن الوعد وفيهم نزلت: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾[1] الآية.

فتأمل خيبة المشركين وخلف أقوالهم وحيرتهم مع كثرتهم، وصدق جميع ما وعدهم رسول الله ﷺ، وجرأة المسلمين مع قلتهم وفقرهم وشدة الأمر عليهم.

وبـــاب آخـــر
[مثل عيسى كمثل آدم]

من أعلامه ﷺ، وهو أن نصارى نجران وغيرهم من النصارى دعاهم إلى الإسلام فقالوا: أسلمنا قبلك فكذبهم في قولهم بأنهم قالوا: لله ولد، وعظّموا الصليب، وأكلوا الخنزير. فقال شيخ منهم كبير فيهم: من أبو عيسى؟ فسكت النبي ﷺ وكان لا يعجل حتى يأمره الله، فأنزل الله عز وجل ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ * إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[2] فقرأ رسول الله ﷺ عليهم ذلك، ثم دعاهم إلى المباهلة وأخذ بيد الحسن والحسين وعليّ وفاطمة رضوان الله عليهم. فقال واحد منهم لمن معه من النصارى: أنصف الرجل، وتشاوروا وقال قائل منهم: إنه لصادق ولئن باهلتموه ليحرقن.

فقالوا له: لا نبارزك، وكرهوا الإسلام، وأقروا بالجزية، وسألوه أن

---

(١) سورة آل عمران آية ١٧٣.

(٢) سورة آل عمران آية ٥٩-٦٢.